المواقف النهضوية عند الدكتور محمد إقبال
دراسة دعوية

م.م: شامل عناد فهد محمد

مكان العمل: ثانوية حذيفة بن اليمان الأسلامية/ دائرة التعليم الديني والدراسات الأسلامية

The Renaissance Attitudes of

Dr. Muhammad Iqbal

Advocacy study

Prepared by: Eng.: Shamil Inad Fahd Muhammad

Abwyamnalkbysy7@gmail.com

الملخص

المواقف النهضـوية، الذي نعدّه جوهر هذه الدراسـة، نقدم إقبالاً هنا خبيراً بصـيراً بالداء الذي يعصـف بالعالم الإسـلامي، ونقرأ رسـائله وصـيحاته المتتابعة من أجل قيام المجتمع الإسلامي من سقوطه وتخلّفه، ومسؤولية العقل في بناء روح جديدة وثقافة جديدة تزاحم ما يعجّ به هذا العالم من فلسفة وفكر .يتقدم إقبال بشـجاعة وجرأة ليفكّك في بنية العقل المسـلم كثيراً من المسـلّمات التي ألقاها الاسـتبداد في دائرة التابو، ومنع من مناقشـتها، ويقتحم منطق احتكار الحقيقة، ويطالب المسـلم باكتشـاف ما لدى الأمم من حكمة ونور، وينادي بالزمالة بين الديانات والفلسـفات والحكمة، والتوقّف عن تكفير العالم، ومع أنه لا يملّ من الحديث عن المجد الإسـلامي، ولكنه بدا حريصـاً تماماً على مكان الأمّة التي يريد: أمة بين الأمم وليس أمة فوق الأمم، ودين بين الأديان وليس دين فوق الأديان، إنها دعوة للمســـاواة والكرامة وليس للنازية والغطرسة والاستعلاء .**الكلمات المفتاحية: المواقف، النهضوية، الدكتور محمد اقبال.**

Abstract

Renaissance positions, which we consider the core of this study, we present here an expert who has insight into the disease that afflicts the Islamic world. Iqbal advances with courage and boldness to deconstruct in the structure of the Muslim mind many of the postulates that tyranny threw into the taboo circle, preventing them from discussing them, and breaking into the logic of monopolizing the truth. Although he does not get tired of talking about Islamic glory, but he seemed completely keen on the place of the nation that he wants: a nation among nations and not a nation above nations, and a religion between religions and not a religion above religions, it is a call for equality and dignity and not for Nazism, arrogance and arrogance. **Keywords: Attitudes, Renaissance, Dr. Muhammad Iqbal.**

المقدمة

يعد العلامة محمد اقبال رحمه الله أحد اشهر المفكرين والفلاسفة والمصلحين الاسلاميين في العصر الحديث فقد اوقف حياته كلها لخدمة أمته الإسـلامية في مشـارق الارض ومغاربها فكان اول صـوت ارتفع ينادي بقيام دولة خاصـة بالمسلمين تحمي مصـالحهم وثقافتهم في الهند وجاءت شـهرته لدى المسلمين من خلال شـعره الملتهب بالروح والعاطفة الذي كان يلهب به مشـاعر المسلمين ويثير في نفوسـهم عزه الإسـلام والحرص عليه وعلى تعاليمه وثقافته وكانت افكاره تقود جماهير المسـلمين وتحي فيهم الأمل في نهضـــة إسـلامية تعيد اليهم امجادهم القديمة فضـلا عن دوره السياسي. ومن أهم أحد أسباب اختياري للموضوع وجود العديد من الدراسات والبحوث عن نتاجاته الادبية, فيما ينذر وجود كتابات لاسيما عن المواقف النهضوية عند محمد اقبال رحمه الله واثرها في الدعوة الى الله سبحانه وتعالى.

خطة البحث

وقد اقتضـت طبيعة هذا البحث ان يقوم على فصـلين, سـبقتها مقدمة وتمهيد, واعقبتها خاتمة بأهم النتائج التي توصـلت إليها في البحث. تناول الفصـل الاول: اقبال والحضـارات وقد قسـمته على اربعة مباحث: فالمبحث الاول: تكلمت به عن علاقة إقبال بالعرب والمبحث الثاني: انتمائه الى الحضـارة الاسـلامية والمبحث الثالث: علاقته مع الحضـارة الهندية والمبحث الرابع: علاقته مع الحضـارة الاوربية.وكان الفصـل الثاني الذي خصصته عن الاصلاح الديني في حياته وقسمته الى ثلاثة مباحث: المبحث الاول تكلمت به على تأثيره بشخصية نيشال ومفهوم المسلم سوبر مان والمبحث الثاني: الثورة على الكهنوف والمبحث الثالث: اقبال ونظام الخلافة.

نبذه مختصرة عن محمد اقبال رحمه الله:

ولد محمد إقبال عام (١٨٧٧م) في سـيالكوت شـمال الهند، وهي تقع اليوم في أرض باكسـتان في إقليم البنجاب، لأسـرة عريقة من أصـول هندوسية اعتنقت الإسلام قبل عدة قرون، وحافظت على منزلتها الاجتماعية والاقتصـادية، فنشأ إقبال في عائلة متديّنة تتوافر لها فرص الحياة الكريمة[١].دفعه والده السيد شيخ نور محمد إلى دراسـة الشريعة، ثمّ إلى الحقل الحقوقي، وهو ما اختاره إقبال في مسيرته الأكاديمية. وقد ظهر نبوغه الشعري مبكراً، وكان أستاذه مير حسن يتولّى تشجيعه، والإشراف عليه فيما يكتبه من أشعار، وكان يرسل أشعاره إلى ميرزا داغ دهلوي أبرز شعراء الأوردية الأوردية آنذ، وبعد فترة قليلة أعلن الشاعر ميرزا داغ أن إقبال بات في غنى تامّ عن تنقيح شعره، الذي بات يتدفّق حكمةً وأدباً وموسيقا. رحل بعدها الى لاهور عام (١٨٩٤م) لاكمال تعليمه وكانت لاهور تعد عاصمة الثقافة الاسلامية في شبه القارة الهندية والتحق بالكلية الحكومية في جامعة البنجاب التي حصل منها على الماجستير عام ١٨٩٩م وتم تعينه مدرساً في نفس الجامعة وبعد ذلك التحق إقبال بجامعة كامبردج في بريطانيا حيث حصل على درجة علميَّة مرموقة في الفلسفة وعلم الاقتصـاد، ثم رحل إلى جامعة ميونيخ في ألمانيا؛ حيث حصـل على الدكتوراه في الفلسـفة[٢]. وأتقن إقبال الإنكليزية والفارسـية إلى جانب لغته الأوردية، ولكنّه أظهر اهتماماً كبيراً باللغة العربية، ووجد

فرصة لتدريس اللغة العربية للمستشرقين في لندن، وقد ساعدته هذه الفرصة على الاطلاع بعمق على أعمال الفلاسفة الكبار في الإسلام ابن سينا والفارابي وابن رشد، وابن عربي وجلال الدين الرومي، كما توافرت له الفرصة للتواصل المباشر مع الثقافة الأوربيّة، والاطلاع على أعمال هيغل وكانط ونيتشه وشوبنهاور من أساطين العلم والفلسفة. واتصل إقبال مباشرة بالسير توماس أرنولد (Thomas Walker Arnold) أبرز المستشرقين المشتغلين بالحضارة العربية والإسلامية وكان أستاذ الفلسفة الحديثة في جامعة لندن، كما أنه عمل أيضاً في جامعة لاهور، ويبدو أنه تعرّف على إقبال في لاهور، ومن الوارد أنه مهّد له وساعده لإتمام التحصيل في جامعة لندن، وقد تولّى السير توماس أرنولد الإشراف على أبحاث إقبال، وحفظ له إقبال دوره الرائد في تنظيم ثقافته، وإطلاعه على كنوز الحضارة الإسلامية[٣].عُيّن إقبال عميداً في كلية الدراسات الشرقية في جامعة البنجاب، كما صنّف كتاباً في «علم الاقتصاد». ولم يصرفه التدريس عن الشعر؛ بل ظلّ يشارك في محافل الأدب وجلسات الشعر، وكان يشارك في حفلات الشعر الارتجالي التي كانت تُسمّى المشاعرة، وكان دائماً نجم هذا اللون من اللقاءات. برز إقبال مفكراً على مستوى الهند، وكانت رسالته واضحة وجريئة، وهي التحرّر والخلاص من الاستعمار البريطاني، ولم يغيب عن بال اقبال الاختلافات الموجودة في الهند بين المسلمين والهندوس ولكن اعلن في عام ١٩٠٩م بناء وطن حرّ لكلّ أبنائه قائم على ثوابت الروح والقيم التي عرفها تاريخ الهند عبر الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى.[٤] وكان إقبال يعيش همّ الأمّة الإسلامية في الهند، ويناضل من أجل حقوقها وحرياتها، وكان يسمّي الهند الجديدة باكستان، وهو من منح هذا اللقب للوطن الجديد الذي سينشأ بعد موته. ومنذ بداية الثلاثينيات تواصل القائد الباكستاني المسلم محمد علي جناح مع إقبال، واتخذه معلّماً وملهماً للشعب الهندي المسلم، مع أن جناح عمل طويلاً لوحدة الهند، وقيام فيدرالية سياسية توفر الحقوق الإسلامية الأساسية للمسلمين في شمال القارة الهندية، قبل أن يتحوّل حزبه «عصبة عموم مسلمي الهند» للمطالبة بالاستقلال التام لباكستان بدءاً من عام (١٩٤٠م)؛ أي بعد وفاة إقبال بسنتين. أما صلة إقبال بالعرب، فهي حقيقة تنبض بها حروف قصائده، وكان عبد الوهاب عزّام أوّل من عرّف العرب بإقبال؛ حيث ترجم معظم كتبه إلى اللغة العربية، كما ساهم أبو الحسن الندوي بالتعريف بهذا الشاعر الكبير وتقديمه شاعراً إسلامياً رائداً.ويزيد ما نشر إقبال باللغة العربية عن ثلاثين كتاباً مستقلاً ومئات المقالات والدراسات. وقد أصبحت كلمات إقبال أكثر ما يردّده الخطباء والدعاة والفقهاء في البلاد العربية، وقد أثارت حماستها ولهيبها شباب الصحوة الإسلامية في مختلف البلاد العربية. كما أن قصيدته الشهيرة حديث الروح، التي غنتها أم كلثوم، صارت أكثر كلمات المناجاة والحوار الروحي اشتهاراً وانتشاراً. وقد ترك محمد إقبال رحمه الله تراثاً أدبياً وفلسفياً احتلّ به مكانةً مرموقةً بين كبار الشعراء والفلاسفة في النصف الأوّل من القرن العشرين.ولا شكّ في أنّ كتابه **(تجديد التفكير الديني في الإسلام)** يعدّ أبرز كتاب شرَح رسالة إقبال وموقفه الفكري والفلسفي، ويعدُّ الكتاب توثيقاً كاملاً لمنهج إقبال في تجديد الفكر الديني[٥].وفي السنوات الأخيرة من حياته حقّق إقبال شهرةً عالميةً واسعةً، وطاف في عدد من البلدان الأوربيّة والآسيويّة، وكان من الطبيعي أن يلتقيه زعماء الدول حين زيارته، نظراً لمكانته الدولية، وفي أفغانستان التقاه الملك نادر شاه بعد استقبال شعبي حاشد في الشوارع الأفغانية، وفي إيطاليا التقاه موسوليني بعد أن سمع عن مكانته الكبيرة. وفي منتصف الثلاثينيات بدأ إقبال يعاني مشاكل صحية متفاقمة انتهت بوفاته في (٢١ نيسان/ أبريل ١٩٣٨).وأعلن يوم وفاة إقبال حداداً رسمياً في شمال الهند، وأُغلقت المحال، وتوقفت المصالح التجارية، ونعاه قادة الهند وأدبائها من المسلمين والهندوس على السواء لقد خلقت وفاة إقبال في أدبنا فراغاً أشبه بالجرح المثخن الذي لايندمل الى بعد امد طويل فقد ترك اقبال ثروة ضخمة من علمه ضمن إثارة عشرون كتاباً في مجال الاقتصاد ، والسياسة ، والتربية ، والفكر ويقول احد الباحثين (ولفردك سميث) ان ثلاثة أشياء تركت اثر عظيماً في نفس إقبال بالنسبة الى أوربا الحيوية ، والنشاط في الحياة الأوربية فالإمكانات الضخمة المتوفرة للإنسان ثم الأثر اللاإنساني الذي تركه المجتمع الرأسمالي في نفس الإنسان الأوربي وقد قوى الاعتبار الأخير إيمانه بتفوق الإسلام و كمثال خلقي وروحي فوقف حياته على الدفاع عن هذا المثال وتطوره وحُمل في جنازة مهيبة إلى ضريحه في لاهور[٦].ويوم رحيله كتب روبندنات طاغور (Rabindranath Tagore) أشهر شعراء الهند: لقد خلفت وفاة إقبال في أدبنا فراغاً أشبه بالجرح المثخن الذي لا يندمل إلا بعد أمد طويل، إن موت شاعر عالمي كإقبال مصيبة تفوق احتمال الهند!![٧]. وبعد قيام باكستان، تمّ الإعلان عن إقبال مؤسّساً ومرشداً لقيام باكستان، وأصبح ضريحه في لاهور تراثاً وطنياً ترعاه الدولة، وتخصّص له الحرس اللائق وفق تقاليد وطنية معروفة ومحبّبة، كما أسّست حكومة باكستان مركزاً كبيراً قرب ضريحه باسم ديوان إقبال، يشتمل على عدد من المؤسسات العلمية، ومكتبة نفيسة، وقاعات محاضرات كلها مخصصة لجمع تراث إقبال وشعره وفنّه وأدبه. كما خصّصت الجامعة الإسلامية في إسلام آباد مركزاً أكاديمياً كبيراً باسم معهد إقبال العالمي للبحوث والحوار، يتولّى التعريف بإسهاماته وعمله وفلسفته.وعلى امتداد باكستان تنتشر مراكز ومدارس ومراكز بحث تعمل تحت اسم إقبال بوصفه معلماً وملهماً ومرشداً للبحث العلمي

والنهضوي.وقد لخّص الأستاذ عبد الوهاب عزّام حياة إقبال يوم رحيله بقوله: «مات رجل كان على هذه الأرض عالماً روحياً، يحاول أن ينشئ الناس نشأة أخرى، ويسنّ لهم في الحياة سنّة جديدة، وسكن فكر جوّال جمع ما شاءت له قدرته من معارف الشرق والغرب. ثم نقدها غير مستأثر لما يؤثر من مذاهب الفلاسفة، ولا مستكين لما يروى من أقوال العظماء، وقرّت نفس حرّة لا يحدها زمان ولا مكان، ولا يأسرها ماض ولا حاضر، فهي طليقة بين الأزل والأبد، خفّاقة في ملكوت الله الذي لا يُحدّ»[٨].

تمهيد

وقف إقبال رحمه الله على أطلال أمة كانت مناراً للتاريخ ومركزاً لإبداعه وإشراقه، فهاله ما رأى فيها من تيهٍ وضياع، فعقد العزم على إيقاظ هذه الأمة النائمة، وبعث الروح فيها من جديد، وسخّر حياته لهذا الهدف النبيل، واستطاع أن يخلّد أروع ما أنجزته الأمّة في قيامها، وأن ينبّهها إلى خطر سباتها ورقادها، وأن يعزّز فيها إرادة الحياة وشرف القيام. لا يخرج شعر إقبال عن هذا الهدف النبيل، ولأجله كرّس قلمه وفكره وروحه، ومن العسير أن تقف في شعره على معارك شخصانية جانبيه تفسد هذا المقصد السامي، ولن تقع عينك، على الأقل فيما وصلنا من شعره بالعربية، على أيّ نصٍ يناقض هذه الغاية، أو يفسد نبل ما فيها، وطهر ما تشتمل عليه. ويمكن تلخيص فكر إقبال بأنه فكر القوّة، فالرجل مؤمن بالقوة سبيلاً للقيام؛ قوّة الفرد وقوة المجتمع وقوة الفكرة وقوة الاعتقاد وقوة الأخلاق وقوة الالتزام؛ إنه لا يؤمن بأنصاف الحلول ولا بأنصاف الرجال ولا بأنصاف الثورات، ولا بأنصاف الحضارات، فالوهن يفسد الأفراد ويفسد المجتمعات ويفسد الأخلاق، والماء الفاتر لا يستعذبه أحد، ولا يشفي جرحاً ولا يبرد ظمأً، وربّما كانت هذه النقطة بالذات هي التي عقدت رباطه بفيلسوف القوّة الناري فريدريش نيتشه.

رأي غاندي إن كنت غير قوي غير مجد في ملتي واعتقادي
ليس إلا عصا الكليم لسحر برهمي مشعوذ في البلاد[٩]

في خطاب النهضة، نصحب إقبالاً في روائعه التي كتبها لاستنهاض العقل المسلم، وبيان مكانته ورسالته في صراع الأمم، ونعيش في هذا المعنى بين رؤية الشاعر ورسالته العالمية، وبين الواقع الذي يعيشه المسلمون.وينشغل إقبال، بشكل رئيس، بالمسلم الذي هو جوهر هذه المواجهة الحضارية، ولا يتحدث عن الغرب كمنتصر راشد؛ بل يتحدث عنه في قيامه ونهوضه باعتباره درساً إنسانياً دقيقاً يجب أن لا يتحوّل إلى مشروع خيبة جديدة، ويطرح بثقة واقتدار مبادئ التواصل والتفاصل بين قيم الإسلام الروحية وبين قيم الغرب المادية وستناول في هذه الدراسة الإشارة إلى فكر النهضة عند محمد اقبال تتلخّص في الدعوة إلى جذوة الآباء وليس رمادهم، وفي اتفاقهم على دور النبي الخاتم في نقل البشرية من ضباب الخوارق إلى ضياء السنن.«لقد صنعت إقبال الفيلسوف، ومالك بن نبي الفكر، ظروف تاريخية واحدة. استمدّ كلٌّ منهما فلسفته وفكره من مصادر واحدة، وروافد متماثلة تماماً. فكلٌّ منهما ابن بيئة إسلامية ومحيط ديني محافظ، ارتبط بالإسلام وفهمه عقيدةً وشريعةً، وكان حبّه لله ولرسوله كبير، لم تؤثّر فيه دعوات الإلحاد؛ بل كانت تلك تزيده تمسكاً بالإسلام، وحبّاً له، ودفاعاً عنه، وتزيده تخلّقاً بأخلاق الإسلام، لرفع التحدي والتصدي لدعاة التغريب من أبناء العالم الإسلامي ومن غيرهم. كما اطلع كلٌّ منهما على الفكر الإنساني بشكل عام، والفكر الإسلامي بشكل خاص، ونال عندهما الفكر الإسلامي القديم والحديث كلّ العناية، وكل الاهتمام بالمتابعة والدراسة والتقويم والمراجعة، كما نال الفكر الغربي القديم والحديث نفس العناية والاهتمام. و كان للفكر الغربي والحضارة الغربية، بشكل عام، الأثر البارز في فلسفة إقبال وفكر مالك بن نبي؛ لأن الفكر الإصلاحي الحديث لدى المفكرين هو مجرد استجابة لفكر غربي، وحضارة غربية غزت العالم الإسلامي، فكانت أمام قيم دينية وتاريخية موروثة، حملها دعاة الإصلاح، وأصحاب التجديد، في واقع تميّز بوجود عالمين اثنين: عالم متخلّف مغزو غشّه ليل الاستعمار، فهو يعاني الجهل والفقر والبؤس والحرمان، والعالم الإسلامي جزء منه؛ وعالم متحضّر غازي، يعيش الحضارة والمدنية والرفاء المادي والتنظيم الاجتماعي، وهو العالم الأوروبي، فكان واقع المسلمين المتميّز بالتخلف والانحطاط من جهة، وواقع أوروبا المتميز بالتقدم والرقي العلمي والتكنولوجي والاقتصادي من جهة أخرى، لهما الأثر البارز في تكوين فلسفة إقبال وفكر مالك بن نبي»[١٠].وفي خطاب النهضة، الذي نعدّه جوهر هذه الدراسة، نقدم إقبالاً هنا خبيراً بصيراً بالداء الذي يعصف بالعالم الإسلامي، ونقرأ رسائله وصيحاته المتتابعة من أجل قيام المجتمع الإسلامي من سقوطه وتخلّفه، ومسؤولية العقل في بناء روح جديدة وثقافة جديدة تزاحم ما يعجّ به هذا العالم من فلسفة وفكر.ولكن موقفه الأعجب يتركز حول مسألة ختم النبوة، ويتعجّب من ارتكاس فهم هذه المسألة لدى الفقهاء، وتحوّلها إلى إعلان وفاة العقل، والاستسلام للتأويل النصّي، والوقوف على ما وقف عليه السلف، في حين أنه يعدّ يوم ختم النبوة أعظم أيام العقل مجداً في تاريخ الإنسانية، ويعدّه بنصٍ واضح يوم مولد العقل الاستدلالي. والمدهش أن إقبال لا يرى أنّ موت الرسول الأعظم هو يوم ختم النبوة؛ بل مبعثه هو يوم ختم النبوة!! ويرى أن سلوكه الديمقراطي في التشريع والإدارة كان في الواقع إعلاناً وافياً بختم النبوّة، وتأكيداً لولادة العقل الاستدلالي.

جهوده في الرد على القاديانية في مسألة ختم النبوةقام إقبال ببذل جهود جبارة في الرد على القاديانية القائلة بأن سلسلة النبوة لم تنته برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ففي مايو (١٩٣٥م) نشر إقبال مقالة في الرد على القاديانية، تحت عنوان «القاديانية والمسلمون» فقام الزعيم الهندوكي الباندیت جواهرلال نهرو، يرد عليه مدافعا عن القاديانية فكتب إقبال عدة مقالات بالإنجليزية في جواب نهرو، دافع فيها عن مسألة ختم النبوة، برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ببالغ حماسة وحكمة.[١١] يقول الأستاذ مسعود عالم الندوي عن جهاد إقبال في رد القاديانية: «ولصاحبنا إقبال مأثرة جميلة أخرى في باب الدعوة الدينية والدفاع عن حرمة الدين المبين، لا تنسى أبد الدهر. ولو لم يكن من أعماله الجليلة الخالدة إلا هذه المأثرة العظيمة لكفته فخراً في الدنيا وذخراً في الآخرة، ألا وهو موقفه الجليل المشهود بإزاء النحلة القاديانية الضالة المضلة، في السنين الأخيرة من حياته...إن الزعيم جواهرلال نهرو كتب مقالتين .. ينكر فيهما على الجمعيات المسلمة الدينية حركتها ضد القاديانية ويؤيد جانب القاديانية وفي مثل هذه الأحوال انبرى المسلم المؤمن محمد إقبال للدفاع عن حظيرة الإسلام ورد كيد القاديانية في نحورها. وتطهير الدين المبين من أرجاسها وأدناسها. فنشر تصريحات عديدة في الصحف، بين فيها موقف الإسلام بإزاء هذه النحلة المارقة التي تؤمن بنبوة الغلام القادياني الكذاب، وكشف عن عورات القاديانيين، وأماط اللثام عن خدماتهم للاستعمار البريطاني وتمسكهم بأذياله» [١٢] وفيما يحاورك عن حججه وبراهينه في رسالة ختم النبوة ودلالتها العقلية والبرهانية، ينطلق من فوره ليشارك العارفين الذين استأنفوا التواصل مع السماء ولكن هذه المرة منبعَ إشراق ونور وليس شريعة وقوانين، فقد قرر إقبال أن الشريعة والقوانين باتت شأن العقل الاستدلالي، تنتجها الأمة في برلماناتها ومجالسها الشوروية، وأن السماء هي مصدر إلهام وليست مصدر قانون، وأن الناس جميعاً شركاء في نفحاتها، وأنها شمس نور تشرق دون كلل في القلوب التائقة إلى ما فيها من نور وحياة[١٣].

الفصل الاول: اقبال والحضارات المبحث الاول: إقبال وعلاقته بالعرب

مع أن إقبال خطا بثقة وشجاعة نحو الإنسان العالمي، واستطاع أن يخلّد في كتاباته عيون الحكمة من فلاسفة الشرق والغرب، وطرح الحوار الهندي الأوربي بثقة واقتدار، لكنّه مع ذلك ظلّ وفيّاً للدوحة العربية التي استظلّ فيها بظلّ الوحي، وظلّ يتحدّث عن أرض العرب مصدر إلهام وعطاء وروح. كتب أحمد حسن الزيّات في إقبال «لقد نبت جسمه فى رياض كشمير، وانبثقت روحه من ضياء مكّة، وتألف غناؤه من ألحان شيراز، داعيةً لدين الله فى العجم، يفسر القرآن بالحكمة، ويصور الإيمان بالشعر، ويدعو إلى حضارة شرقية قوامها الله والروح، وينفر من حضارة غربية تقدّس الإنسان والمادة»[١٤]. وعلى الرغم من ارتباط قيام باكستان برسالة محمد إقبال، واعتباره المرشد الروحي لقيام هذه الدولة الإسلامية المجيدة، لكن من العسير أن نجد في شعره، أو فكره، ما يوحي بتلك الحدود المرسومة على تخوم الوطن الجديد؛ لقد ظلّ يفكر بمنطق عالمي عابر للأوطان والأزمان، يكون فيه الإنسان الكامل (المسلم الموعود) روحاً لهذا العالم.كتب أبو الحسن الندوي: «ويرى محمد إقبال أن المسلم حقيقة عالمية لا ينحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيّقة؛ بل يتخطّى حدود الزمان والمكان، في مساحة زمانية شاسعة كتاريخ العالم الإسلامي ومساحة مكانية شاسعة كمساحة العالم الإسلامي»[١٥]. كان مؤمناً تماماً بأن الجيل الأول حول رسول الله استطاع أن يقود العالم بكفاءة واقتدار، وقدم خلال التاريخ سلسلة من الإنجازات الهائلة التي تحتاجها البشرية، والتي ترسم في ذاكرة العالم روح نهضة متوثّبة لا تزال قادرة على المزيد من العطاء.

وابل من فيض أمي اللقب — الكريم الفرد في كل الكرام
أنبت المزهر بصحراء العرب * وسقى في القفر بستان الوئام [١٦]

إنها الرسالة التي بدأت بصوت بلال الله أكبر، وهدمت أوهام الجاهلية الأولى، وأسّست لحضارة إنسانية جديدة تخلف الأنماط التائهة من الحضارة الرومانية والفارسية.

وضاً والحصى درراً
الصحراء للعرب
غير النبي بها
بها عن السحب* [١٧]

لقد كتب كثيراً عن روائع الحضارة الإسلامية في دمشق وبغداد وأصفهان ودلهي وسمرقند وقرطبة، ولكن المشهد الذي لم يكن ينساه أبداً هو مشهد الصحراء العربية، التي كان عمقها وصفاؤها ونقاؤها أقدر من كل هذه الحواضر العظيمة على التعبير عن روح الإسلام الخالدة الوثيقة الاتصال بالأرض، والعميقة الوصال بالجذور.

هضبات نجد في مغانيها المها ومحاور الغزلان ملء تلالها
والمجد مشتاق وأمة أحمد * يتهيأ التاريخ لاستقبالها[١٨]

وحين تحدث عن حضارة المسلمين كان يقرأ من سطور التاريخ سبائك الذهب التي نسجتها الحضارة الإسلامية في قلب التاريخ الوسيط، وحوّلت أماني الأمم إلى عواصمها الرائدة تلتمس فيها بريق الحضارة وموعد المستقبل:

لا تقلْ أين ابتكار المسلمين وسلِ الحمراء واشهد حسن تاج
دولة سار ملوك العالمين نحوها طوعاً يؤدّون الخراج
كبّروا لله في ظلّ الحروب وصفوفاً تحت ظل المسجد
ضجة دانت لهم فيها الشعوب وارتقوا فيها مكان الفرقد[١٩]

أين خمد ذلك اللهيب؟ ولماذا تحوّل إلى رماد بائس؟ ولم لا يقوم المسلم اليوم بحمل تلك الراية بالعزائم الأولى التي كان عليها أجداده، إن أمّة قدّمت في الماضي براهين التفوّق قادرة أن تقدم ذلك في كلّ حين:

وي كأن لم تشرقوا في الكائنات بهدى الإيمان والنهج الرشيد
ونسيتم في ظلال الحادثات * قيمة الصحراء في العيش الرغيد[٢٠]

كان يشعر بانتماء عميق لهذه الحضارة العربية التي اصطبغت بنور الإسلام ورايته، ولم يقبل أبداً أن يصمت على الواقع العربي والإسلامي الذي كان يشهد سقوطاً وشتاتاً، وكانت الدول الكبرى تتقاسم أقاليم العالم الإسلامي في الغرف المغلقة وتسمّيه الرجل المريض.

وحين كتب إقبال عباراته كانت الأمة العربية بالكامل ترزح تحت الإستعمار الأوربي، وتتقاسمه بالكامل إرادات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا، وكان وجود الأمة العربية نفسها محلّ جدل، فقد فشل المشروع العربي في نقل الخلافة من اسطنبول إلى مكّة فشلاً مريعاً، ومع أن الشريف حسين كان قد أطلق الثورة العربية برعاية بريطانية وفرنسية، ولكن الدولتين الكبيرتين كانتا ترسمان المنطقة على خريطة أخرى، ولم يكن فيها مكان لصاحب مكّة، الذي وجد نفسه لاجئاً في قبرص، وطاح الحلم بالخلافة الإسلامية الكبرى، وتحوّل مشروعه إلى حكومات متتابعة في ظلّ الانتداب البريطاني في العراق والأردن، ولم يجد من يحمي له كرسيه في الحجاز، وحين اختار ضريحه الأخير في القدس كان مشروعه قد انحسر في حدود الضفة الشرقية للأردن، وودعه ولده عبد الله عام (١٩٣١) في ظروف بالغة التعقيد، ليس فيها أدنى بريق لخلافة موعودة ضاعت في قمار الأمم. دعا اقبال منذ وقت مبكراً بالاهتمام بالقضية الفلسطينية لذلك ترأس مؤتمراً كبيراً في لاهور اقليم البنجاب في السابع من ايلول عام ١٩٢٩م وهدف هذا المؤتمر تقديم احتجاج على سياسية الحكومة البريطانية نحو قضية فلسطين العربية ورعايتها لليهود وكان مما قاله في المؤتمر (ان المسلمين يستشهدون في فلسطين وتقتل نسائهم واطفالهم وتسفك دمائهم في القدس الشريف التي فيها المسجد الاقصى الذي اسرى اليه النبي صلى الله عليه وسلم)[٢١]. ودافع عن فكرة بطلان دعوى اليهود بأمتلاك جزء من المسجد الاقصى فأعلن عن هيكل سليمان قد انهدم قبل دخول المسلمين الى القدس الشريف بقرون ولم يعرف اليهود مكان ذلك الهيكل حتى اكتشفه المسلمون وبنوا في ذلك الموضع مسجداً كبيراً سمي بالمسجد الاقصى وموضع المسجد الاقصى بكامله وقف لله تعالى في الشريعة الاسلامية ولايجوز امتلاكه لاحد على اطلاقاً فدعوى اليهود بأمتلاك جزء من المسجد الاقصى باطلة وغير شرعية من الناحيتين القانونية والتاريخية[٢٢].

ارسل اقبال رسالة الى محمد علي جناح وهو الذي اسس باكستان فأصبح اول رئيس لها اوضح فيها ان مشكلة فلسطين لها الاثر العميق في نفوس المسلميم وان وجود مركز غربي على بوابة الشرق خطر للغاية.[٢٣] وبهذا نبه محمد اقبال رحمه الله في رسالته السابقة على وجود اليهود في فلسطين هو وجود قوة مدمرة للمنطقة كلها وتبقى تأثيراتها على المنطقة العربية لما تبثه فيها من مشاكل. كان إقبال يثير الحماسة والأمل بالجيل الجديد من الأمة العربية، ويذكّرهم بدورهم في قيادة العالم، والوفاء الكبير الذي تحمله الأمم الإسلامية لهذا الشعب النبيل.

كل شعب قام يبني نهضة وأرى بنيـــانكم منقسما
في قديم الدهر كنتم أمة لهف نفسي كيف صرتم أمما
كل من أهمل ذاتيته فهو أولى الناس طرا بالفناء
لن يرى في الدهر قوميته كل من قلد عيش الغرباء[٢٤]

كانت البلاد العربية في واقع مزرٍ ومحبط، ولم تكن هناك إرادات واقعية لقيام أمة عربية في الجغرافيا، أو في السـياسـة، وكانت فرنسـا تكرّر في سورية سياساتها في فرنسا الجزائر، وكانت بريطانيا ترى أن العراق وفلسطين ومصر منصّة متقدّمة للتاج البريطاني، امتداداً طبيعياً للمملكة التي لا تغرب عنها الشمس.ولكنّ إقبال تحدث عن العرب باحترام غير عادي، وتوجه إلى عواصم الإسلام في دمشق وبغداد والقاهرة كما لو أنها ما زالت أيام هشام وهارون الرشيد، وكما لو كانت قبابها ومناراتها لا تزال مقصد العالمين لدراسة العلم والحكمة والنور.وفي كتاباته المتكررة كان يعيد الحديث عن المجد العربي، ويؤكّد على الدور العربي في ريادة العالم الإســلامي، واشــتهرت في ذلك رائعته الجميلة: «أمة الصحراء».

أمّة الصحراء يا شعب الخلود من سواكم حلّ أغلال الورى
أيّ داع قبلكم في ذا الوجود صاح لا كسرى هنا لا قيصرا
من سواكم في حديث أو قديم أعلن القرآن صبحاً للرشاد
هاتفاً في مسمع الكون العظيم ليس غير الله ربّاً للعباد[٢٥]

*

كتب إقبال ببراعة ورضا فكرة تفوق اللغة العربية، مع أنه كان بالغ الاعتزاز بثقافته الهندية، ودائم الفخر بسحر الهند، وطوفان فارس، ومجد الأفغان، ولكنه مع ذلك نجح في أن يمنح العرب صفة اللغة المقدّسة التي حملت القرآن والأذان في كلّ مكان في العالم.أن تقلّل من دورها البنّاء في الريادة الحضارية، وهي بذلك تختلف عن اللغة الإنكليزية التي حقّقت انتشاراً هائلاً في العالم، لكنّها ظلت لغة تواصل وتجارة وأعمال، ولم تدخل إلى وجدان الشعوب لغةَ عاطفة وروح. وفي هذا السياق، فقد كانت قراءة إقبال لمجد العربية واعية وبصيرة، وفي هذا السياق يمكننا الإشارة هنا إلى أن اللغة العربية حقّقت حلم الحكماء عبر التاريخ، فقد أخفقت الإنسانية في جمع العالم على لغة واحدة، ولا تزال اللغات المتعدّدة، إلى اليوم، ترسم ملامح الهيئات الدولية كافةً.ولا بأس في أن نوضح، هنا، أن العربية تمكّنت من أن تكون لغة العالم لستّة قرون في إطار الثقافة والدبلوماسية على أقلّ تقدير، وهذا مجد لا يُنازع للعرب، كما أنها ظلّت لغة القرآن والشعائر، ولم تستطع أيُّ حضارة اختارت شعوب الشرق اللغةَ العربية لصلاتها ومناسكها وعبادتها وتحيّتها وسلامها، واختارتها أسماء على أولادها، واسم محمد وعمر وعلي وخالد وجعفر وعبد الله وعبد الرحمن، وغيرها من الأسماء العربية، تملأ العالم الإسلامي من أندونيسيا إلى إيران، ومن كازاحستان الى سيريلانكا، وكذلك في تركيا والقوقاز والبلقان، مع أن هذه الاسماء لا معنى لها في اللغات المحليّة، ولا شكّ في أن ذلك يعدُّ وفاءً للغة القرآن ومجده، في حين أن العالم الذي يتحدث الإنكليزية، اليوم، لم يتحوّل إلى أسماء بريطانية، ولا يتسمّى الهنود، ولا القوقازيون، ولا الأفغان، باسم جاك واليزابيث ومايكل...، إنه تعبير بسيط عن الارتباط الروحي الذي تكنّه هذه الشعوب للّغة العربية، ودورها الحضاري والعلمي في العالم.

فكّروا في عصركم واستبقوا طالما كنتم مثالاً للبشر
واملؤوا الصحراء عزماً وابعثوا * مرةً أخرى بها روح عمر[٢٦]

المبحث الثاني: انتمائه الى الحضارة الإسلامية

في مقدمته لديوان (جاويد نامه) كتب هرمان هسه (Hermann Hesse): ينتمي السير محمد إقبال رحمه الله إلى ثلاثة أحياز روحية، وهذه الأحياز الروحية الثلاثة هي منابع آثاره العظيمة، وهي: حيّز القارة الهندية، وحيّز العالم الإسلامي، وحيّز الفكر الغربي[٢٧].لقد كتب إقبال طويلاً في الحضارة الإسلامية، وتمكّن من أن يرسم بريشته أروعَ ما في الحضارة الإسلامية وأشدّها نقاءً وتألقاً.إنه لم يكن يتحدث كأستاذ في التاريخ، لقد كانت رسالته واضحة، وهي أن من أنجز ذلك اللون الفريد من الحضارة قادر على أن يعود إلى المجد مرةً أخرى، أوليس الذي خلق الحضارة الأولى بقادر على أن يخلق مثلها؟ بلى وهو الخلّاق العليم؛ إنه ينصّب المسلم على منصّة الإبداع العالمي في مكان القائد الآسر للقلوب تترقّبه الأمم، وتنتظره العزائم، ويحاول أن يبعث فيه إرادة الحياة من جديد.لقد تغنّى بالقادة الفاتحين، وإقبال في الواقع ابن المرحلة اللاهبة

التي شهدها العالم بين الحربين، كما أنه ابن الهند الثائرة في وجه بريطانيا، وابن الأمّة التائقة إلى باكستانها الجليل...، ومن الطبيعي أن ينحاز إلى الأبطال المنتصرين، وأن يستلهم منهم أبطالاً من جديد يقومون بعبئ التغيير في هذا العالم الإسلامي المنكوب.كان يدرك تماماً أن هذه الآمال الكبار لن تأتي بالأمنيات، وأن التاريخ لا تصنعه النوايا الطيبة، وأن العالم مهما حفل بالعظماء والحكماء والفقهاء، فإنّ العسكر هم الذين يكتبون التاريخ، وهم الذين يرسمون مستقبل الأمم.كان يقاسم نيتشه غضبه على الكهنوت وعلى الأخلاق الخانعة التي يعلمها الكهنوت، لم تكن تعجبه ثقافة إذا ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر وإذا أخذ رداءك فاعطه إزارك... ، وأعلن غضبه الحارق على الفهم المتشظّي للدين والإنسان، لقد كان يعجبه الثائر القويّ، الذي يملك أقداره بيمينه ويكتب مستقبل الأجيال بزنده، ويكتب بسيفه حركة التاريخ.وسجّل إقبال في كتابه (تجديد التفكير الديني في الإسلام) إعجابه الكبير برجال ثلاثة من زعماء الهند، وهم: أحمد الفاروقي السرهندي، وشاه ولي الله الدهلوي، وأورنك زيب، وقال لولا هؤلاء الثلاثة لابتلعت الهندُ الحضارة الإسلامية.

أمّا أحمد الفاروق السرهندي المتوفّى (١٦٢٤)، فقد كان من أبرز علماء الشريعة، وكان مرشداً على الطريقة النقشبندية، وعُرف في التاريخ باسم مجدّد الألف الثاني، وقد اشتهر بصلابته وثباته في وجه السلطان أكبر، ومقاومته لمشروع الدين الجديد الذي دعا إليه أكبر. أمّا ولي الله الدهلوي، فقد كان أبرز علماء الشريعة وفقهائها في الهند، وقد توفي عام (١٧٦٢). أمّا أورنك زيب، فقد كان أبرز سلاطين المغول المسلمين في الهند (١٦٥٨-١٧٠٧)، وقد نجح في بسط سلطان المغول المسلمين على كامل تراب الهند، وأوقف انهيار الدولة المغولية.وهؤلاء الثلاثة يرمزون، في فكر إقبال، إلى قوّة المسلمين في الهند، وقد كانت الهند أحوج ما تكون إلى ثقافة القوّة في أيام إقبال، بعد أن مارست بريطانيا احتلال الهند بشكل مباشر عقب إسقاط السلطان بهادر شاه.ويجب القول إن إقبال لم يكتب على نسق هؤلاء المرشدين في الفكر، لقد كتب على نسق جلال الدين الرومي، وابن عربي، وجمال الدين الأفغاني، ولكنه عدّ هؤلاء الرجال الثلاثة روائز كرامة وإرادة وثبات للمسلم الناهض في القارة الهندية، وإن كان مشروعهم الفكري والتراثي غير متطابق مع رؤيته ودراساته. ويقدّم الدكتور محمد البهي مقارنةً بالغة الأهمية للدور الإصلاحي الذي قام به إقبال، ويعدّه تناوساً فكرياً كاملاً مع مشروع الشيخ محمد عبده الإصلاحي: «محمد عبده ومحمد إقبال كلاهما قام بمحاولة فكرية إسلامية، أو بحركة إصلاحية في تعديل المفاهيم الإسلامية، قصد منها بيان القيمة الإيجابية في توجيه الإسلام. وكلاهما دُفع، إذاً، إلى هذه المحاولة تحت ضغط عامل خارجي؛ أحدهما –وهو الشيخ عبده– تحت ضغط الاستعمار الصليبي، والثاني –وهو محمد إقبال– تحت ضغط الفكر المادي الطبيعي وسيادته في أوربا وانتشار الدعوة إليه في الهند خاصةً في ذلك الوقت عن طريق السيد أحمد خان والشاعر التركي توفيق فكرت من دعاة مذهب أوجست كومت في حركة التجديد الإسلامي في تركيا، وكلاهما أخلص في محاولته، وبذل مجهوداً مشكوراً فيه»[٢٨].وفي ديوانه الأخير (أرمغان حجاز)، ومعناه هدية المسافر إلى الحجاز، يعيد إقبال مناقشة واقع السقوط الإسلامي وسبل القيام والنهضة، فيشرح ذلك عبر مؤتمر إبليس، وفيه يفترض أن إبليس جمع عتاولته ودهاقنته في مؤتمر حاشد، واستمع منهم إلى برامجهم الكثيفة في تدمير المجتمع الإسلامي، واستمع إلى عرض تفصيلي لتعاقدهم مع جهات متخصّصة في الغرب والشرق بهدف القضاء على الإسلام.وفي رواية إقبال إن إبليس يختتم مؤتمرهم بكلمة جامعة، يكشف فيها أن السبيل الكفيلة بتحطيم المسلمين هي الانهيار من الداخل، وصرف أبصار المسلمين عن حقائق القوّة والعلم في دينهم إلى أوهام الاستسلام والخضوع، وأن السبيل الأسرع للانهيار هو إشغال المسلمين بجدل التراث وصراعاته، وإشعال الحروب الكلامية واللاهوتية والجدلية بين المسلمين، وهذا ما سيعيد الصراع جذعاً بين السنّة والشيعة والصوفية والسلفية، ولا أظنّ أن إبليس قد قصد أكثر من هذه الحرب الطائفية بين السنّة والشيعة، التي يصطلي بها الشرق الأوسط منذ أربعين عاماً بلا توقّف!ويلتفت إقبال إلى العالم الإسلامي الحائر في نهضته وعثاره، ويرفع صوته آهات حرّى؛ نريد مكاناً للمسلم، موقع بين زحام الأمم، أعطونا أرضاً وفرصةً وسندهش العالم بالعجائب، هكذا كان إقبال يراهن على المارد الإسلامي المتلظي خلف وهم سحائبه وذكرياته:

المنبر اليوم والمحراب قد فرغا ... نّ أم من صرخة السحر صمّ الجبال وأين الصعق في السور؟
أين الأذان الذي كانت تميد له ... فإذ بها أمّة الصحراء في خور
طوفت في أمة الصحراء أسألها ... وما له في وجوه القوم من أثر[٢٩]
رأيتهم في سجود لا اتجاه له

إنها صرخات إقبال، وفيها روح العرب وفلسفة الهند. يهتف للمسلم الواقف على عتبات عصر جديد، يطالبه بإعادة إنتاج العالم من جديد، فهو جوهر العالم وروح الوجود، وهو من يتقدّم في الملأ الأعلى والملأ الأدنى، ورســـالته إعادة الاعتبار إلى روح هذا العالم، مكاناً للحب لا

للحرب، وللإشراق لا للإخفاق؛ إنها اللحظة التي يجب فيها اقتحام المشهد التائه، وإعادته إلى اعتباره يوم قدمه الله للملائكة سيّداً مطاعاً تسجد له الأملاك، وتنتظر قدومه الأفلاك، وتختاره الأمم سيداً مطاعاً.

المبحث الثالث: إقبال وحضارة الهند

كان جدل الهند طاحناً مطلع القرن العشرين، ولم يكن بوسع أحد أن يقول إلى أين تذهب هذه القارّة الهائلة، وكانت بريطانيا، التي تريد ألا تغرب عنها الشمس، في جدل مع حريّات الشعوب الثائرة، فأيُّ نظام ذلك الذي سيكتب تاريخ الهند الجديد، وكيف ستمضي سفينة المستقبل في بحر الهند الطامي، وأين هو موقع المسلمين فيها؟إقبال تقلقه تلك الأسئلة العاصفة، وهي لا تختلف في شيء عن أسئلة العالم الإسلامي في كلّ مكان، لقد كانت اللحظة للتاريخ والمستقبل، لقد عصف الإنكليزي بمجد الأباطرة المسلمين، وأصبح أورنك زيب وشاه جهان وبابر مجرّد قبور ومزارات، ولم تعد جيوشهم تنشر الحياة، وتفرض الأمن في السند والبنجاب وأسام وكوجارات وبيهار وراجستان، وأعلن العصر الجديد نهاية عصر السلالات وبدء عصر الديمقراطيات، وبات الاستبداد يمسك بشراعه في مواجهة الريح العاتية، وبريطانيا تصرخ بمكر ستنتحرون حين أرحل!! وأمام هذا المشهد الهائل نحتاج الإرادة والصمود.المسلم روح الهند ونكهتها الحضارية؛ هو روحها التي عصفت بالشرق، الذي طالما ارتوى من كفّ محمود وإياز،[٣٠] وحدائق الهند العظيمة التي كُتبت فيها أعذب أغاني العشق والجمال، وغاباتها التي تزاحم بأكتاف الفيلة، وتاريخها ما بين أباطرتها العظام بابر وأكبر وأورنك[٣١] زيب يعكس صراع التاريخ والجغرافيا، ويرسم ملامح الوطن الجديد الذي ينبغي أن تنهض فيه إرادة المسلم في صورة إحياء جديد للعالم المضطرم. ومن المؤسف أن إقبال مات عام (١٩٣٨)؛ أي قبل أن ترى باكستان النور بتسع سنين، وعلى الرغم من أن إقبال طالب دوماً بحضور المسلم في الهند، ولكن من العسير أن نستخلص من مواقفه خريطة للمستقبل السياسي للهند التي يريد، فقد قام الرجل ببثّ الحياة والأمل، ولم ينصّب نفسه رئيس حزب سياسي.ولا شكّ في أن أشعاره اللاهبة بثت الروح في المسلم الهندي، ولكن من يتأمّل فيها يجد أنها كانت موجّهة للمسلم؛ لدفعه في الإسهام والبناء في الحوض الهندي كله، باعتباره أكبر حوض بشري في العالم، وباعتباره أغنى بقاع العالم حضارةً وتنوعاً، ومن الممكن أن يكون للمسلم فيه دور الريادة والقيادة كما كان خلال التاريخ، منذ أيام محمود الغزنوي إلى الدولة الإسلامية المنغولية التي حكمت الهند باقتدار أربعة قرون. وفي مقاربة سياسية قدّمها في (أرمغان حجاز) يتحدث عن بؤس التحول إلى الدساتير الغربية دون وعي بما في الهند من روح إسلامية بنّاءة لا يمكن تغييبها بوجه من الوجوه، ويؤلمه الاضطهاد الذي كابده المسلم في هذا التحوّل الأبله، الذي يستدبر الإيمان، ويريد إقامة هند بلا روح ولا تاريخ ولا يقين:

أنّى وقفت على سيف مررت به	وجدته بدم الإسلام مختضبا
لو أنها الهند كانت وحدها ألمي	لكنت أوجدت لي في حمله سببا
هاهم يبيعون للأوغاد أنفسهم	ويرقصون على أنغامهم طربا
فلا استطاعوا يكون الشرع حاكمهم	ولا استطاعوا إلى الدستور منقلبا[٣٢]

كانت رؤيته واضحة لا يمكن لمئتي مليون إنسان يعتقدون الإسلام في روحهم وضمائرهم، وقد قادوا الهند بكفاءة واقتدار، أن يضعوا جانباً هذه القوّة الهائلة للدخول في النادي الدستوري الجديد، الذي يُقدّ على قياس بريطانيا.... الهند شيء آخر!! الدين هنا ليس ثقافة تكميلية يأخذها من شاء وينبذها من شاء؛ إنه هنا روح الهند وتاريخها وعنفوانها وأسرارها، وكلّ محاولة لبناء دستور علماني يتعالى على قيم الأديان لن تؤتي أيّ ثمرة أو نتيجة، وستكرّس ظلماً عميقاً يعانيه كل متديّن، ولكنه في الحالة الإسلامية سيورّث انفجاراً وصخباً لا تتسع له سماء هذا الكوكب!!. ولكن التجافي عن الأديان كلّها أقلّ سوءاً من هندسة الهند وتهميش الإسلام، فالمسلمون هنا ليسوا ضيوفاً طارئين؛ إنهم سدى الهند وترابها ولحمتها؛ إنهم عشرة قرون من التدافع الحضاري الممتد من لاهور إلى كيرالا، آثاره ونفحاته تنطق بها كلّ بساتين الهند، وحكمتها وفلسفتها، وشعراؤها. لقد أصبح اليوم مسلمو الهند أزيد من ستمئة مليون، ولا ندري على وجه التحديد كيف سيبدو العالم لو بقي هؤلاء في روح القارة الهندية، ولن أخوض الجدل التقليدي هنا حول الحكمة من تقسيم الهند، وبحسبي أن أقول إن إقبال كان داعية إلى القوة الإسلامية والسلطان الإسلامي في الهند على أساس من العدل والاحترام والإيمان بالحضارة الإسلامية الراسخة والحضارات الفلسفية الأخرى.

المبحث الرابع :علاقة اقبال مع حضارة أوربا

حدد إقبال موقفه من إشكاليات عصره إذ من المعلوم إن من يحمل دعوة التجديد لابد له ان يحدد بدقة وعناية موقفه من قضايا عديدة تدور حول التجديد وتتصل به من قريب او من بعيد ومن تلك القضايا قضية الصلة بين العقل والعاطفة ، وقضية التقدم والتخلف ،

وقضية الأصالة والمعاصرة ، وقضية الموقف من ثقافة الآخر وما الذي نأخذه منه وما الذي نتركه وكذلك ما الذي نأخذه من تراثنا وما الذي نهمله وكيف نكون قوة فاعلة في العصر طاقتنا الدين وجوهرها الإحسان.[٣٣] فليس هناك من منقذ للإنسان الذي سلبت الحضارة المادية ذاتيته وقيمته سوى الدين الذي اسما مظاهره ليس عقيدة فحسب او كهنوتا او شعيرة من الشعائر وهو وحده القادر على إعداد الإنسان العصري إعدادا خلقيا يؤهله لتحمل التبعة العظمى التي لابد من ان يتمخض عنها تقدم العلم الحديث وان يردا إليه النزعة من الإيمانية التي تجعله قادرا على الفوز بشخصيته في الحياة الدنيا والاحتفاظ بها في دار البقاء[34].ومن خلال تأمل إقبال في حضارتي الشرق والغرب فضل حضارة الشرق، لأنه وجد فيها مواكبة وانقساماً بين العقل من جهة والعاطفة من جهة أخرى، بين العلم من جهة والعاطفة من جهة أخرى، بين الروح من جهة، والمادة من جهة أخرى، وقال:"صدقوني أن أوروبا اليوم هي أكبر عائق في سبيل الرقي الأخلاقي للإنسان. أما المسلم فإن له هذه الآراء النهائية القائمة على أساس من تنزيل يتحدث إلى الناس من أعماق الحياة والوجود".[٣٥] فقد درس إقبال في أوربا واطلع على الفكر الغربي واستفاد من منهجه ومال الى فكر بعض الفلاسفة واخذ عنهم الا انه حمل على الحضارة الغربية ورأى فيها ثورة تشكلت من مفاهيم والأخلاق والى عاكفة ٍ مادية بحتة وعجت على محاربة الدين فهي في خصومه دائما مع الدين نما على عبادة آلهة المادة ومن هذا المنطق يرى إقبال ان الحضارة الغربية التي تحكمها الإيديولوجية الرأسمالية والتي لاتؤمن الا بالمادة قد حطت من قيمة الإنسان المعاصر وسلبته إيمانه بنفسه وأوجدت له مشاكل لاقبل له بحلها ويقول الإنسان العصري وقد أغشاه نشاطه العقلي كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة أي الى روحية تتغلغل في أعماق النفس وهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه وهو في مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره هو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة وحبه للمال طاغيا يقتل كل مافيه من نضال سام شيئا فشيئا ولا يعود عليه منه الا تعب الحياة وقد استغرق في المواقع أي مصدر الحس الظاهر للعيان فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده تلك الأعماق التي لم يسبر غورها بعد اخف الإضرار التي أعقبت فلسفته المادية هي ذلك الشلل الذي اعترى نشاطه والذي أدركه هكسليHUXLEY وأعلن سخطه عليه.[٣٦]طاف إقبال معالم الحضارة الغربية، ولم يكن يتوقف عند ظواهرها وبريقها؛ لقد كان في جدل عنيف مع الجوهر العميق لهذه الحضارة، وكانت دراساته الفلسفية تأخذ عليه وجوده كلّه، لقد كان مدهشاً أن تتعرف إلى فولتيير وغوته وجان جاك روسو وأعمدة القيام الأوربّي، وهي لحظة دهشة وسحر. كانت دهشته في قراءة الحضارة الغربية كبيرة وصادمة، لكنه كان يمتلك مخزوناً كافياً للتوازن من حضارته وسحره الشرقي.

رأيت فلاسفة بالألوف رؤوسهم تحت أطمارها
وذو الوحي يكشف عن رأسه ** ويهتك أستار أسرارها[٣٧]

وفي قراءته لحضارة الغرب وفاتنات أوربا يُظهر إقبال ترفعاً غير عادي على حضارة تُختصر بناطحات السحاب، ويعلن تماماً أنه يمتلك من الوعي الحضاري ما لا تعرفه حضارة الآلات:

بريق الحضارة أوج الترف لدى الغرب لم تستطع فتنتي
أنا ابن المدينة ابن النجف غبارهما كان في مقلتي
غبارهما قطرة للعيون وأنفع طب لذي علة
مقيم برغم رياح القرون ** وما كان من مستبد عتي[٣٨]

ترفّع إقبال عن التقليد الأعمى للغرب، وأصرّ على التفوّق الشرقي الساحر على المجتمعات المادية الصاخبة بالسكك الحديدية والكهرباء ودخان المصانع، ولكن ذلك كلّه لم يكن يعني له الرضا عن هموم الأمة وسباتها، ولم يكن ليسلّمه إلى سبات ساذج، لقد أعلن مشواره الإصلاحي في داخل البيت الشرقي الإسلامي:

كلّ من أهمل ذاتيته فهو أولى الناس طراً بالفناء
لن يرى في الدهر قوميته **** كلّ من قلد عيش الغرباء[٣٩]

ويخوض إقبال حواراً عميقاً مع المشهد المرعب في أوربا في أعقاب صراع تاريخي مرير بين الكنيسة والقصر، لقد بدا أن القصر قد حسم المشهد لصالحه، ولكن من المؤلم أن يكون الثمن هو الإنسان، الذي تحول في عالم الصراع هذا إلى سلعة يتاجر فيها الكبار، وهو على وشك أن يزجّ به من جديد وقوداً لحروب جديدة، ولعلّها من نبوءات إقبال التي لم تتأخّر أبداً.

رأس الكنيسة في الوداعة غارق — والقصر فوق الناس يرفع أنفه
تنوي المضي فيستبد أمامها — وتريد تلعنه فتمشي خلفه
هذا التناقض كيف يمكن فهمه — سبحانك اللهم ربّ النار
ما للكنائس والقصور وسيلة — في الناس غير تبادل الأدوار
لوا عن الدين السياسة بعدما وتطاول البابا فقيل له استرِ — وصلوا بفتنتهم إلى التيجان
أصبحت سلطاناً بلا سلطان [٤٠]

إنها باختصار حكاية الصراع بين الدين والكنيسة الذي طبع أوربا ألف عام، وانتهى بها إلى حروب من جحيم لا تنطفئ حتى تشتعل، ولا تخمد حتى تثور، ولا يزال قادة الحروب يرفعون على ظهورهم شعارات الشعب الغاضب، فتريد الكنيسة أن تثأر لإيمانه ويريد الملوك أن يثأروا لأمنه، ولكنه في الحالتين صريع أطماعهم وبطشهم، ولا يعود عليه من نار حروبهم إلا الخيبة:

وتلفّت الشعب الجريح فلم يجد — حظاً له من ذلك التغيير
كانت مصالح راهب ومتوّج — صارت مصالح حاكم ووزير
لن تعرف الناس السلامة ساعة — ما لم تفقْ من حمق هذا الداء
هي لعنة الدنيا كما أفضى لنا — بالسرّ هذا سيّد الصحراء [٤١]

الفصل الثاني: إقبال والإصلاح الديني:

يعرف إقبال في العالم الإسلامي شاعراً ثائراً، وربّما سياسياً لامعاً، وكذلك فيلسوفاً متيناً، ولكن الجانب الأكثر إثارةً في شخصية إقبال، من وجهة نظري، هو رسالته في الإصلاح الديني ومواقفه النهضوية.وقد كتب إقبال طويلاً في الدين، ولا شكّ في أنّ تأملاته في التوحيد والزمان والمكان جديدة وفريدة، وتتضمن بذور ثورة عميقة في الفكر الديني؛ لا تتوقف عند الاجتهاد في الأحكام؛ بل تتصل بالعقيدة والشريعة جميعاً، وتتأكد، بوجه خاص، في إيقاظ رسالة الإرادة ورفض سلطان القدر. وفي مطالعة احميدة النيفر قال: «ولقد ظلّ عموم فكر إقبال مهجوراً في الحراك العربي الإسلامي الحديث لعقود متوالية، خلافاً لما أنتجه من شعر، وكان أشدّ ما لقيه هذا الفكر من إعراض متعيّناً في مقاربات إقبال القرآنية. أفضل نموذج يمكن تقديمه في هذا الصدد هو قراءته قصّةَ "هبوط" آدم الواردة في القرآن الكريم. لقد اتجه بهذا "الهبوط" وجهة مغايرة لما ساد لدى عموم المفسرين المسلمين، ولما تواتر من شروح لسفر التكوين في نصوص العهد القديم الخاصّة بهذا الخروج، ولم يرى إقبال أنّ الموضوع متعلّق بطرد أو انتقال مكاني خرج به الآدمي من عالَم إلى عالم آخر، بقدر ما رأى أنّ فيه تحوّلاً في الذات الإنسانية وفي وعيها.

هذا التحوّل عند إقبال هو بدايةُ نشوء الذّات الحرّة عن رغبة ورضا، وهو تجسيد للفعل الإنساني القائم على حرّية الاختيار، إنّه الإعلان عن بروز ذات متناهية لها القدرة على أن تختار»[٤٢]. ويقدّم إقبال موقفه في الوعي بالإسلام رسالة نهضة وقيام، يتجاوز هرمينوطيقا النص إلى غاياته ومقاصده، فلا يعنيه ما نسج الشارحون حول النصوص القديمة؛ بل يدعو إلى فهم مختلف يستخرج فيه من النصوص مقاصدها، ومن الشعائر معانيها، ثم لا يبالي، بعدئذٍ، سخط الفقيه، ولا رضاه.«فكلمة خودي، التي كانت في الفارسية تعبيراً عن الخالق المطلق الذي تنمحي في مقابله الذات صيّرها إقبال وعياً بتحرّر الذات من كلّ قيد، وهو معنى لا إله، التي هي أكثر العبارات جرأةً وإقداماً وتهوراً، وحين يُضاف إليها تتمّة الشهادة، إلّا الله، فهي تأكيد للحقيقة الأولى، وهي توثّب الذات وقيامها وتحرّرها عبر عالم من الوصال في الله ونوره وإشراقه.

وكلمة الفقر التي كانت مجداً في مدارس الفقهاء أعاد إقبال تشكيلها مبتكراً مصطلح السيطرة الأخلاقية، وكلمة المؤمن لا تعني أكثر من الإنسان الرسالي المثالي في أيّ أمة، وكلمة الكعبة والحرم تعني الهدف السامي، وكلمة السجود تعني الجهد العنيف والصلاة تعني الرغبة الحارقة، والأذان يعني الدعوة الى العمل»[٤٣]. إنها قراءة مقاصدية للإسلام، لا تنحبس في زمان غابر، ولا نصوص شارح عاثر؛ إنها روح الشريعة ومراميها ومقاصدها التي يمكن أن تشرق في كلّ عصر جديد وأرض جديدة.ولقد تأثّر كفاح إقبال، في التجديد الديني، بقادة التنوير في الإسلام في مدرسة الرأي والعقل، وعلى رأسهم أبو حنيفة رحمه الله، واعتبر في سياقه ابن سينا والفارابي وابن رشد، وقد كتب عنهم بتفصيل، ولكنّه تأثر بشكل بالغ بعدد من فلاسفة الغرب التنويريين والحداثيين، وعلى رأسهم إمانويل كانط (Immanuel Kant) ونيتشه (Nietzsche).

المبحث الاول: إقبال ونيتشه والمسلم السوبرمان

في رسالة الدكتوراه عند محمد اقبال رحمه الله ، التي كانت بعنوان (الميتافيزيقا في إيران)، لم يأتِ إقبال على ذكر نيتشه، ولكنه في كتابه التالي (تجديد التفكير الديني في الإسلام) ذكره ستّ عشرة مرة، وبشكل خاص في فكرتي العود المتواصل والعود الأبدي، ومبدأ الخلود.

ومع أن جدله عند نيتشه كان يتصل بموقف نيتشه في مسألة السوبرمان والإنسان الأعلى، لكن الجانب الأكثر إثارة وأهمية كان موقفه من نيتشه في جدل الأديان والحقائق الغيبية.لقد أسر نيتشه إقبال بنظريته الغاضبة على الكهنوت. وفي الواقع، إن نيتشه، الذي يُصنّف عادةً أنه من أكثر الملحدين عتواً في الأرض، لا بدّ أن يُذكر أيضاً بوصفه تقيّاً مسيحيّاً، أو على الأقل راهباً زرداشتيّاً، ولا يجب أن نتوقع كثيراً من المنطقية في هذا الجدل؛ فالرجل لم يزعم نفسه منطقياً على الإطلاق، وقد كتب شعره في زرداشت غاضباً ساخراً مستفزاً، ثم دخل من فوره إلى مستشفى الأمراض العقلية؛ حيث أمضى نحو عشرة أعوام بين عنابر مستشفى المجانين. ولكن الصراع في الوقائع لم يكن بين نيتشه وبين الله، إنّما كان بين نيتشه وبين الكهنوت، وبشكل خاص الأخلاق الضعيفة التي تعلّمها الكنيسة؛ من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الايسر، وإذا أخذ رداءك فأعطه إزارك... لقد صرخ الرجل إن أخلاقاً كهذه ستدمّر ألمانيا، التي يطالبها جيرانها بالتواضع والخضوع؛ فألمانيا هي بلاد المجد الحضاري الأوربي، وهي الإمبراطورية المقدّسة منذ ألف عام، وعلى العالم أن يتقبّل التفوّق الألماني والتاريخ الألماني، ولا بدّ من أن تكون ألمانيا فوق الجميع، وهذا هو مكانها وتاريخها وقيامها عبر التاريخ. لقد اقتبس إقبال القوّة من نيتشه، ولم ينظر إلى الفيلسوف الهائج على أنه محض زنديق مرتد؛ بل نظر إليه على أنه ثائر على الخنوع الديني الذي كان سمة الكنيسة في أوربا، وكان في الوقت إيّاه سمة التصوّف الإسلامي في الشرق. وعلى الرغم من الحياة الصاخبة المضطرمة للفيلسوف نيتشه، وتناوسه المتكرر بين الجبل والمدينة ومستشفى المجانين، لم يكن إقبال يرى أنه كان كافياً لرسم ملامح الثورة الهادرة التي يريد، فقد كان يريد مزيداً من غضبه، لكنه في الوقت نفسه لا يريد انتحاره وجنونه! من هذا الجانب، وجد إقبال في نيتشه تجربة تناسب مشروعه في الدعوة إلى قيام المسلم الجديد سوبرماناً جباراً يكرّر رسالته التاريخية المجيدة، ويدعو إلى مجد جديد على ملامح ما أنجزه المسلم في تاريخه الطويل.ومع أن همَّ إقبال في إصلاح المؤسسة الدينية همٌّ داخلي بكل تأكيد، وأن إقبال كان يتطلع إلى إصلاح الخطاب الديني وليس تدميره كما فعل نيتشه، وهذا ما أفردنا له فصلاً خاصّاً، لكنه بالتأكيد تمكن من قراءة الجانب الملتهب في نيتشه قراءةً متوازنة، ونجح أن ينقله إلى الحاجة المحلية، وأن يصرفه من إعصار هائج مدمر إلى نسيم يعيد الحياة إلى المؤسسة الروحية في الإسلام.ومع أن الحديث عن إقبال يتخذ دوماً طابع الدهشة بشعره وصوره وموسيقاه، ولكن هذه الدراسة معنية بشكل خاص بمشروعه التنويري الذي أطلقه في الإصلاح الديني.ومن المؤكد أن كتاباته وقصائده ومشاريعه كانت تهدف إلى تحقيق إصلاح عميق في بنية التفكير الديني، وقد يقتضي ذلك أن نكتب بلغة البحث الموضوعي ربّما على النسق الذي كتبه هو نفسه في كتابه الشهير (تجديد التفكير الديني في الإسلام)؛ حيث جعله تحليلاً عقلياً وموضوعياً صرفاً، ولم يورد فيه بيت شعر واحد!! ولكن يبدو أنه من المستحيل أن نبتعد من عالم إقبال الإشراقي، ومن قراءاته الروحانية المتفقة، فهذا فحسب ما يليق بإقبال، ولا معنى لبحره دون أمواج، ولا معنى لنهره دون تدفّق، ولن نجني أيَّ متعة حين نقصد الريّ من هذا النهر المتدفق عبر قوارير مغلقة، مهما كانت باردة وأنيقة.ولأجل ذلك، ستتولى هذه الصفحات التعريف بفكر إقبال في التنوير الديني خاصةً، ولكن ليس عبر المناقشة العقلية المحضة التي كتبها بعناية في حواراته مع شبنغلر وهاملتون جب، وإنما عبر شعره الثائر الذي يتحدى الحصون العتيقة، ويرمي بالأيقونات كلّها مرة واحدة، وهذا بالضبط ما جعله يختار لأيقوناته غضب الفيلسوف الألماني الهائل فريدريش نيتشه، وملهمه القديم زارا (Zarathustra)[٤٤]، الذي يؤمن بالحياة زنداً وغضباً وثورة ولهيباً، يقدس النار المقدسة في اشتعالها وتوقدها، ولا يحفظ أدنى احترام أو عطف للرماد البائس. وفي تعبير شاعري ملهم يلخّص إقبال غضب نيتشه وثورته بقوله:«لقد أسخطه ضعف عناصر الإنسان، وراح يخلق الإنسان مرةً أخرى في عالمه الناري الملتهب، وراح يحطّم ذلك الإنسان الواهن الذي خلقته الأخلاق المسيحية البائسة، فأثار بين الفرنج هياجاً بعد هياج: مجنون ولج مصانع الزجاج!! لن تجد في قيثارته ألحان الاسترخاء، فليس في نايه إلا قصف الرعد، قد دفع مبضعه في قلب الغرب واحمرت يده من دم الصليب، هذا الذي بنى معبداً للصنم على قواعد الحرم، قد آمن قلبه وكفر دماغه!»[٤٥]. وكتب إقبال للدكتور نيكلسون: «كل من حاول إثبات إفادتي من نيتشه فهو لا يعرف الحقيقة. إن نظريتي في الإنسان الكامل قد أبديتُها، وكتبتُ فيها قبل أن أعرف نيتشه بسنين طويلة، وقد سبق أن نشرت مقالاً في هذا الصدد منذ فترة طويلة، ثم ألحقته في رسالتي للدكتوراه عن تطوّر ما وراء الطبيعة في إيران عام (١٩٠٨م). وأهم ما يفرق بيني وبين نيتشه، أن نيتشه لا يرى من الضروري أن تتصادم الذات في طريق تنميتها وارتقائها إلى القمة مع العوامل الخارجية، وأما عندي، فمن الضروري أن تحدث المعركة بين الذات وبين العوامل الخارجية، والسبب في ذلك أن نيتشه لا يرى من الضروري بقاء الإنسان، وأمّا أنا، فأقرّ بقاء الإنسان»[46].

لقد بدا واضحاً أن إقبال ينشد الغضب النيتشوي الهادر ليصنع منه السوبرمان الإسلامي، ولكنه يختلف عنه في وعيه بالتاريخ؛ فبينما يراه الأول ديالكتيك أصم، يراه إقبال جدلاً بصيراً لا بدّ من أن ينتهي بانتصار الإنسان. في الفقرات الآتية سنحاول الاقتراب من مشروع إقبال التنويري الشجاع، وسنعترف مسبقاً بأننا لن نبسط نظرية متكاملة في التنوير بقدر ما نبسط أفكاراً وآراء جريئة ونبيلة ومتقدمة، وهذا هو في الواقع ما قصده إقبال، وهذا بالضبط ما مارسه أيضاً.وأؤكد أن ما سنقرؤه هنا من شجاعة وإقدام لم يكن ليمرَّ دون نقد شديد من سدنة الهيكل، الذين رأوا في كتابات إقبال هدماً للموروث وتطاولاً عليه، وقناعتي أن ما شفع لإقبال، ومكّن مشروعه من الاستمرار وكلماته من الوصول، هو أنه كان في ملعب الشعراء لا في ملعب الفقهاء، وقد اعتاد العقل الشعبي أن يغفر للشعراء ما لا يغفر لسواهم.

المبحث الثاني: الثورة على الكهنوت

ليس سراً أن التجديد الديني هو في الجوهر صراع مع الكهنة، وقد حدد إقبال ثورته بوضوح، فهو ثائر في وجه الخرافة، وهو معني بمطاردتها في كورها ودورها، وليس سراً أن نقول إن الخرافة اعتادت التخفّي في عمائم الشيوخ والكهنة، الذين يبيعون تجارة الوهم للناس، ويتاجرون فيها. وهذا الواقع ليس جديداً؛ بل هو جوهر الثورة التي خاضها الرسول الكريم في مشروعه النهضوي، فقد كانت مواجهته الحقيقية في الواقع مع السدنة والكهنة ورجال الدين الذين كانوا يدافعون عن الدين الوثني التقليدي، وكانوا يرون ثورته عدواناً على التقاليد الدينية الراسخة، وكانوا يرون أن مواجهته بكل الوسائل فريضة دينية يدفعهم إليها إخلاصهم وإيمانهم بدين إبراهيم، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يُراد إقبال كان يؤلمه الانحراف الكبير الذي يمارسه بعض رجال الدين من التجارة بالسحر والوهم والشعوذة، وقد دفعه هذا الموقف لاختيار رأي حادٍّ في رفض القدر بوصفه دعوة إلى الاستسلام والخنوع، وفي مواجهة ذلك كتب طويلاً، وربّما كان ما كتبه في القدر هو أشدّ الآراء جرأة ومواجهة ضد الكهنوت، فقد عدّ رجال الدين والكهنة تجار وهم، وأنهم يسلمون الناس الى أقدارهم المهيضة ليبتزوا أموالهم بدلاً من دفعهم إلى التغيير ومواجهة الأقدار بشجاعة وبصيرة. ولكنه ظلّ وفياً لأولئك الزاهدين الصالحين الذين اختاروا نمطاً بسيطاً للحياة، ولم يشاؤوا أن يزاحموا الناس في الثروات والدثور والقصور، ووجدوا في أكواخهم من الرضا ما تحسده عليهم قصور الملوك:

ذهب الدراويش الذين عهدتهم — لا يأبهون لصارم ومهند

وبقيت في حرم يتاجر شيخه — ** — بوشاح فاطمة ومصحف أحمد [٤٧]

ويمضي إقبال في ثورته على تجار الدين المنافقين، ويواجه مباشرة أولئك الذين امتهنوا الدين حرفةً فهم اعداء الاسلام، وتحولوا عن الارتزاق بخدمة الناس الى الارتزاق بمخادعتهم وبيع الأوهام لهم وهذا مانراه كثيراً اليوم والذي شخصه اقبال في زمنه.

كثير من شبابنا لا ينقصهم الإخلاص، إنما ينقصهم المنهج او القائد الذي يوصلهم الى القمة أن يكون عناؤهم في سبيل قيام الأمّة وليس في سبيل همودها:

دم المسلم النور في دربه — ومعجزة النور في حبه

ويعترف العصر أن الجمال — نما وترعرع في قلبه

ولولا مدارس هذي الشيوخ — وأحبار سوء ورهبانها

لروى المدينة مما ارتواه — ** — وأشرق بالحي بستانها[٤٨]

كان يؤلمه أن يرى الآمال الصاعدة لجيل آمل مفعم بالعطاء والرجاء يذهب راقصاً إلى مدارسه ومعاهده طافحاً بالأمل، لكنه يواجه الوجوه الكالحة البائسة لجيل خامل آفل، يطفئ جذوتها، ويقمع أحلامها، ويحيل لهيبها رماداً.

صغار الشواهين ما ذنبها — هم علموها عناق الغبار

هم قتلوا الحب في صدرها — هم أبدلوها بهذا الشنار

ترى النشأ يملأ وجه الطريق — بروحات نِسر وغدْوات بازْ

ومفتي الدينة واد سحيق — يتيه بمصطلحات الحجاز[٤٩]

أين هي المدارس العظيمة التي كانت تبعث الروح في طلابها، وأين اختفت ملامح التوثّب التي كانت ترسمها ريشة العارفين على وجوه الجيل الناهض، أين هي مناهج بغداد وأصفهان وقرطبة وغرناطة، ولماذا لا نصوغ رحيقنا من تلك المناهل، ولماذا نكرّر الموت الذي ورثناه منذ قرون؟ ألا يوجد من يحمل الجذوة الأولى، ويبعث الحنين القديم إلى روضة الإبداع.

أنا لست أفهم هذي الكؤوس ويؤسفني مثل هذا اللجاج
ومن كان يحسن نحت الصخور ** ترفع عن أن يصوغ الزجاج[٥٠]

ويسأله سائل يشرب كل يوم من كأس النخبة ويعيش في أبراجها: أليس الأولى بك يا أستاذ الحكمة والفلسفة أن تتفرغ للعمل الأكاديمي والبحث العلمي، وأن تترفّع عن منازلة المسائل المتصلة بالعامة، فهي لا تليق بك أيها الفيلسوف، ولكنه يلتفت في غضب ويقول:

فإلى متى صمتي وحولي أمة يلهو بها السلطان والدرويش
هذا بسبحته وذاك بسيفه ** وكلاهما ممّا نكدّ يعيش [٥١]

إنها معاناة العارف؛ فهذه المدارس الفقهية التي يتخصّص بها طلبة المدارس الدينية في الهند تحقّق تفوقاً غير عادي في حفظ المتون، ويتخرّج طلابها حفظة لكامل القرآن الكريم وكتب السنن المعتبرة، البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه، ولكن هؤلاء الحافظين لا يقدمون أكثر من نسخ جديدة لهذه الكتب القديمة، وهيهات أن تستطيع ثقافة الاجترار أن تأتي بجيل جديد، أو نهوض جديد.

غصن العقيدة في المدارس عار ومذاق أديرة بلا أسرار
بالرغم من طول الطريق وعسره عيناك ظاعنة وقلبك ساري
أسفاً لدين ليس يكسب دولة ولدولة وقفت كخيبر وجهه
من أين للاثنين كرة حيدر يلقي سخافتها ويصلح فقهه[٥٢]

أين ذهبت تلك المدارس التي كانت تضجّ بها بغداد وأصفهان ودمشق وتبريز؟ أين هي تلك المدارس التي تخرّج فيها طارق وعقبة؟ ومحمود الغزنوي وإياز؟ وصلاح الدين ونور الدين؟ أين توثّبهم ولهيبهم؟ ولماذا تحولت مدارسنا إلى رماد بلا لهيب، ولم يبقَ فيها إلّا كراسات وطباشير؟

ما في مدارسك التي ترتادها إلا بحوث مغفَّل وبليدِ
سرُّ الدراسة في فؤادك كامن ** لو كنت تحسن صرخة التوحيدِ[٥٣]

ويشدد إقبال على أنّ رسالته ليست رسالة المجتمعات المخملية الساكنة في أبراج العاج... إنّها في العمق رسالة الدراويش أنفسهم، الذين يرون الله مصدر كمال وطهر، ويفهمون الشريعة بأنّها مراده وأمره، ويرون أن الإسلام إنّما جاء لينصفهم من المظالم والمآثم، وهو من يحقّق لهم كرامتهم وسعادتهم ومساواتهم بالملوك.

يقولون إقبال ماذا يريد ومن أين جاء بهذا السلوك
سألت الدراويش عن سرّها وألقيته في وجوه الملوك [٥٤]

وفي بيوت الله يجد الحائر سلوة قلبه، ويجد المسكين أنس حيرته، هو كذلك مسجد محمد وكنيسة المسيح، لقد بناه عسفاً من النخل، وحشواً من أدم؛ أمّا عيسى، فقد سقفه بورق التين، وكانت بيوت رحمة ومساواة وأنس.. ولكن هذه المعابد اليوم تحوّلت إلى مبانٍ عملاقة تعاظمت فيها القباب والمحاريب والمنارات والقداديس وغاب عنها الله، وتزاحم فيها المصلّون وغاب عنها الإيمان. وفي ثورته على الكهنوت لا يتوقّف إقبال عند حدود التأمّل والنظر؛ إنه يلقي مواعظه على الجبل كالمسيح، تحناناً وريحاناً، لكنّه حين ينزل إلى أسواقهم، ويطوف بين الفريسيين على موائد القمار وهم يتاجرون بالدين والله والإنسان، لا يستطيع أن يستمرّ في ابتسامه ومجاملاته، لقد استيقظت في نفسه كرّة حيدر وبأس عمر.

وفي إحدى روائعه ينتفض إقبال من مقعده غاضباً، فيفسد الحفل المخصّص لتكريم المُلّا الشهير ذي اللحية الطويلة والبرذعة المزركشة، الذي نجح في إقناع الملائكة بتعميده سفيراً للربّ في العالم، يتعلّم منه المريدون والسالكون شعائر الدين وطقوس العبادة، وهو خاوي القلب أبله، لا يتقن إلا طقوس الشعائر، ويمضي أيامه بليداً خامداً بلا لهيب. وينتفض إقبال في المهرجان، ولم يشأ أن يسكت عن كلمة حقٍ، فصرخ بها في مسمع الملائكة، ووجد نفسه يشرح ثورته مباشرةً أمام الله:

أنا أيضاً كنت لكن ما تحمّلت السكوت
كدت من شدّة غيظي أتمنى أن أموت

كنت إذ بشرت الحجاب بالفردوس ملّا
فتقدمت أنادي عفوك اللهم كلّا
ليس للمُلّا اهتمام بمغانيك وحورك
هو سكران نعم سكران من غير خمورك**[٥٥]

لماذا يُكرّم هؤلاء الملالي؟ وما عســـاهم يقدّمون إلى هذا الجيل الواثب غير الأوهام والجهل؟ وما الذي يحتاجه الجيل الجديد من محفوظاتهم الكئيبة؟

ما درى من لجّة الذوق سوى قيل وقال
يحسب الدين الذي أنزلت تاريخ جدال
لا يرى في الناس إلاه تقياً ومطيعاً
كيف ترضى عن غبي كفّر الناس جميعاً
ليس في الفردوس ذكر لكهوف وصوامع
إنه رونق سرّ الحب في فيض المدامع**[٥٦]

ويمضي إقبال في شرح ذلك الغصب الهادر، ويكشف عن جدل عاصف في العالم الأعلى احتجاجاً على صيحاته، وهي نرجسية طاغية يكرّر بها صراخه المستمر في شكوى وجواب شكوى، ويرى بثقة أن شكواه كانت حدثاً تزلزل له العالم الأعلى، وهكذا صرخ إقبال: إمّا أن يتغيّر الخطاب الديني، وإمّا فليتغيّر العالم كلّه!! تفاجأ بها جمهور إقبال في الأرض وفي السماء على السواء!!

لما اشتكى لله إسرافيل من ... شكواي قال بحرقة وتنهّد
هذا الفتى قبل الأوان يريد أن ... ينهي الوجود بشعره المتمرّد
فأجابه صوت أليس أشدّ من ... هذي النهاية ما ترى يا سيّدي
إحرام أهل الصين داخل سورها ... وهمود مكّة في جوار محمّد[٥٧]

المبحث الثالث: إقبال ونظام الخلافة:

سـجّل إقبال موقفاً فريداً في مسـألة الخلافة؛ فعلى الرغم من حنينه الدائم وشـوقه إلى الدولة المسـلمة، وإلى التاريخ الإسـلامي والحضـارة الإسلامية، لم يكن يرى الخلافة بوضعها البائس تعبيراً عن شيء من هذا، واختار الدعوة إلى الدولة الحديثة التي تحمل قيم الإسلام بدل الدولة القديمة التي تحمل اسـم الإسـلام ولا تعرف رسـالته ومجده.ونظام الحكم في الإسـلام مصـطلح فقهي محدث، ولكن معناه قديم، وقد كان يتمّ التعبير عنه بصـيغة السـياسـة الشـرعية أو أحكام ولي الأمر، أو الأحكام السـلطانية وغير ذلك، وقد كتب الفقهاء، قديماً وحديثاً، في شـروط الحاكم وآداب الحكم وأنظمة الحكم في الإسلام بلغة تراثية معزّزة بالروايات تأسيساً على تطبيق السلف الأوّل، المتفق على إمامته واستقامته.

ولكن إقبالاً لم يكن يرى الحكم الإسـلامي شـعاراً أو دثاراً، إنه باختصـار التطبيق العملي لقوله تعالى: ﴿لقد أرسـلنا رسـلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ [سورة الحديد ٢٥] وقد عُدّت هذه الآية مباشرة في تحديد صورة نظام الحكم في الإسلام، بناء على أهدافه وغاياته ومراميه، وهي العدل والقسط وإنصـاف الناس. لا يوجد شكل سياسي يمكن القول إنه أمر الله دون سواه، ولم يأتِ القرآن الكريم لينتصـر للحكم الجمهوري، أو الملكي، أو الاشتراكي، أو الرأسمالي، لقد كان المطلب القرآني واضـحاً في طبيعة الحكم الإسـلامي بأنه رسـالته العدل ليقوم الناس بالقسـط، ووسـيلته الشـورى ﴿وأمرهم شـورى بينهم﴾ (سـورة الشـورى ٣٨)؛ أي حكم الجماعة، وهو ما يقتضـي أنه مناقض للاسـتبداد. ولكن ذلك لا يعني، بأيّ حال، أن تفاصـيل المجالس الحاكمة والهيئات السـياسـية التمثيلية يمكن أن نحدّدها وفق نصـوص القرآن الكريم أو السنّة المشرفة. إن إقحام النص الديني في وصف شكل الحكم في الإسلام يعدُّ تعسّفاً وتمحّلاً تأباه العقول السليمة، ولا يزال التاريخ الإسلامي ينتج أشكالاً لا تنتهي من صيغة الحكم، تخيرها الناس في قرون وأمصار شتى، واجتهدوا أن يحققوا للناس الأمن والعدل، وكلّها وقف وراءها فقهاء وأصوليون.

لقد ولّي أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة عن شورى بين النخبة، فيما ولّي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بوصية من الحاكم الراحل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وولّي عثمان بن عفان رضي الله عنه عبر مجلس خبراء تخيّره عمربن الخطاب رضي الله عنه ، وولّي علي بن ابي طالب رضي الله عنه عبر ظروف حربية استثنائية، وولّي معاوية رضي الله عنه عبر اتفاق سياسي مع الحسن رضي الله عنه ، وولّي يزيد وراثةً عن أبيه. إنها باختصار ستّة أنظمة مختلفة لاختيار الحاكم تمّ تطبيقها بعد رحيل الرسول مباشرةً، وعبر كبار الصحابة.

إن نظام الحكم في الإسلام هو سلسلة من القيم العليا التي ينبغي تحقيقها في المجتمع من الأمن والحرية والعدالة والمساواة والتعليم والصحة، وهذا هو جوهر توحيد الله ورفض الخضوع للجبت والطاغوت، وأيُّ نظام حقّق هذه الأهداف هو النظام الإسلامي الذي يحقّق أهداف النبوّة في الدولة الرشيدة، وأيُّ حكم يكرّس المظالم والفوارق والجهل والتخلّف لن يكون نظاماً إسلامياً، مهما كان يتدثّر بشعارات التوحيد والكتاب والسنّة[٥٨]. أمّا التعبير بالخلافة، فقد كان سبيلاً لربط الخلف بالسلف، وتذكير الحاكم بأنه يستكمل رسالة النبوّة، وبأن مسؤوليته هي العدل والمساواة بين الرعية. ولكن الخلافة ليست شعاراً إعلانياً خاوياً؛ بل هي أسلوب حكم مرتبط بالمقاصد، وحين تعجزعن تأمين العدل والمساواة، فلا معنى على الإطلاق لاعتبارها صورة الإسلام ورسالته.لقد باتت الخلافة، في القرون الأخيرة، علقة شقاء على الشعوب الإسلامية، وعجز الخلفاء عن تأمين العدل في الرعيّة، وعن وقف الفساد في قصورهم وعروشهم، وانفصل الخليفة تماماً عن معاناة الناس وعذاباتهم، وباتت الخلافة، كما رآها إقبال، مريضةً بائسةً، تسلّط عليها العسكر من كلّ وجه، وغرقت في الفساد والتفكّك، ولم يبقَ لها سلطان على أهلها، ناهيك عن الشعوب الإسلامية في البلاد البعيدة، التي باتت تعاني مظالم القهر والجهل والعجز دون أن تتمكن الخلافة من تقديم التنمية والازدهار لهذه الشعوب. وفي المشهد الدولي، فقد باتت الخلافة العثمانية مترهّلة واهنة، لا تستطيع أن تواجه التطورات المتسارعة للشعوب الأوربيّة الواثبة وهي تتقاسم العالم، وقد أصبحت الخلافة نفسها ميراثاً لكلّ ناهب، وباتت عاجزةً عن حماية نفسها في الأناضول، ناهيك عن حماية الشعوب الإسلامية في الجزيرة العربية والهند وآسيا الوسطى والشمال الأفريقي، وبات من حقّ هذه الشعوب أن تحقّق ذاتها واستقلالها وأمانيها بعيداً عن المراسيم الهمايونية التي كانت تصدر عن الأستانة، ولا تحمل إلى العالم الإسلامي إلا الإرباك والوهن، ولا تقود مشروعاً تنويرياً صالحاً لقيام هذه الشعوب ونهضتها. وفي النهاية، باتت شيخوخة هذا النظام السياسي الواهن واضحة لكلّ مراقب، واصطُلح على تسميتها «الرجل المريض» بعد أن صارت نهباً للأمم الغالبة.[٥٩] وفي موقف لافت يتحدّث إقبال عن التحوّل من نظام الخلافة التقليدي إلى نظام الحكم الجمهوري، ويرى أن النظام الجمهوري أكثر تعبيراً عن قيم الإسلام في العدالة والمساواة والشورى من نظام الخلافة الذي أصبح مظهر استبداد فارغ، تتوارثه عائلة حاكمة، لا مزايا لها إلا النسب الموصول بالعساكر المحاربين الذين أخضعوا العالم ذات يوم بجيوشهم الجرّارة، ثمّ يأخذه العجب من إقرار العالم الإسلامي بنمط حكم كهذا، لا يوجد فيه ما يتصل على الإطلاق بقيم الإسلام الأصيلة في الحرية والمساواة والتشاركية وتداول السلطة. ومع أن إقبال عاصر أفول الخلافة العثمانية، يوماً بيوم، لكنّه، في الواقع، لم يجد ما يبرّر العطف على هذا النمط الهمايوني من الحكم، الذي أصبح علقة شقاء للترك وللعالم الإسلامي كلّه، ولم تقنعه أبداً تلك الألقاب المهيبة التي يلقيها الخلفاء على أنفسهم: خليفة الإسلام والمسلمين، وحامي حمى الدين، وخادم الحرمين الشريفين، وأمير المؤمنين، والغازي الأعظم، والفاتح الأفخم حضرة أقدس همايون السُلطان خان المُعظَّم، پاديشاه، عاهل آل عُثمان، سُلطان السلاطين، بُرهان الخواقين، وخليفة رسول ربِّ العالمين، مُتوّجُ المُلوك، ظِلُّ الله في الأرضين وسُلطانُ البحرين!! وهذا ليس إلا ثلث اللقب الرسمي للعثمانيين، ورأى أنها ألقاب مملكة في غير موضعها، وأنها لا تحقّق شيئاً للإنسان، ولا معنى لحضارة لا تجعل محورها الإنسان. لماذا تكون هذه الخلافة صورة الإسلام في العالم، وهي ترتكز على الحكم الفردي الاستبدادي، ولا تعكس أيّ روح جماعية ديمقراطية، ولماذا نتصوّر أنها تعبّر عن وحدة المسلمين بعد أن صارت صورة بائسة لا تستطيع مواجهة نزعات التتريك المحلية، وأصبح استمرارها يتطلّب ولاة مستبدّين باطشين يحولون دون قيام الشعوب، ودون نهضتها وحريتها. لقد تجاوز العالم كلّه فكرة الإمبراطور الفرد، وحتى الدول التي تحمل الدم الإنكليزي الصلب الرافض للتطوير، اختارت، في النهاية، الحفاظ على ملوكها هياكل من ذكريات، ولكنها نزعت من أيديهم الحكم، ودفعته إلى المجالس المنتخبة الديمقراطية؛ فلماذا يجب على الأمة المسلمة أن تتخلّى عن حرياتها وقيامها ونهوضها من أجل تقاليد عتيقة زخرفها وزخرف لها وعّاظ السلاطين، ولم تعد تعني المسلمين في شيء[٦٠].لقد أدهشه أن هذا النمط من الحكم، الذي يركز السلطة كلّها في يد الفرد، وينقلها إلى أبنائه بعد موته، ليس له أصل في الشرع؛ بل إن نصوصاً كثيرة نهت عن الملك العضوض الذي يتوارث السلطات، ولا وجود في نصّ القرآن الكريم كلّه لمنصب الخلافة، ناهيك عن منصب وليّ العهد المتربّص بالمنصب وفق إرادة المستبدّ وضد إرادة الشعب. ويبدي إقبال إعجابه بالإصلاحات الكبيرة التي يقوم بها مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، ويبدي رغبته بأن يقوم أتاتورك جديد في كلّ بلد إسلامي، ينفض عنه غبار القرون!! ويقول ما نصّه:«إن تركيا، في الحق، هي

الأمّة الإسلامية الوحيدة التي نفضت عن نفسها سبات العقائد الجامدة، واستيقظت من الرقاد الفكري، وهي وحدها التي نادت بحقها في الحرية العقلية، وهي وحدها التي انتقلت من العالم المثالي إلى العالم الواقعي؛ تلك النقلة التي تستتبع كفاحاً مريراً في ميدان العقل والأخلاق»[61]. وقد أثار إعجاب إقبال بأتاتورك حيرة كثير من المفكّرين الإسلاميين، وتأوّل له كثير بأن موقفه هذا كان قبل أن تظهر نوايا أتاتورك الهدّامة، ولكنني أعتقد أن إقبال كان على بصيرة في موقفه، وقد تجاوز العاطفة التقليدية، ونظر إلى مصلحة العالم الإسلامي الحقيقية لقد بات واضحاً أن أوربا تتقاسم تركيا المريضة، وأن الخليفة لا حول له ولا قوة، وقد بات مستعداً أن يعقد لواء الصدر الأعظم لكلّ غالب، وكان من الوارد تماماً أن يكون هذا الصدر بريطانياً أو فرنسياً وفق سياق الأحداث الجارف. ومن هنا قدّم إعجابه بالجهد الكبير الذي بذله مصطفى كمال أتاتورك في مواجهته للجيوش الأوربيّة، ورفض تسليم تركيا للغرب، وإعلانه استقلال تركيا دولةً حديثةً وفق القيم الديمقراطية في العالم المتحضّر. يبدو إلغاء منصب الخلافة عملاً مرعباً أغضب التيارات الإسلامية التقليدية في العالم كله، ولكن إقبال نظر إلى المسألة في سياق المقاصد، بعد أن بات واقع الخلافة عاجزاً عن تحقيق أيٍّ من مقاصد الإسلام الكبرى في الحكم، وباتت ألقاب مملكة في غير موضعها... كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد.ومع أن موقف إقبال لا يشبه الخطاب التقليدي الذي تعودنا سماعه في رثاء الخلافة باعتبارها صورة الإسلام ومجده، ولكن هذا الموقف الواقعي شاركه فيه كثير من المفكّرين الإسلاميين الذين عاصروا تلك المرحلة، وربّما كان من المفيد أن نشير هنا إلى نصٍّ بالغ الأهمية كتبه الزعيم الإسلامي الفقيه الكبير عبد الحميد بن باديس في رثاء مصطفى كمال بعد موته.

الخاتمة

محمد إقبال الشاعر الفيلسوف هو هدية الإسلام إلى المسلمين، و إلى الإنسانية، في الزمن المعاصر. تشكل العقيدة الإسلامية مجرى تفكيره الفلسفي، ومجرى إبداعه الشعري، فقد بذل جهدا جبارًا لإعادة التوازن المفقود بين العلم والدين، حيث وفق بين نتائج العلوم الغربية وبين النصوص القرآنية في منظومة فلسفية تجديدية، حل فيها تصور الله الأحد محل مفهوم الحقيقة الأخيرة الفلسفية.فبثاقب نظرته كشف عن الأبعاد الحقيقية للوجود في إطلاقه، وعن الإنسان في خصوصه وتحدُّده، ورسم الخطة المثلى للعلاقة الصحيحة بين المطلق والمقيد أو بين الله و الإنسان في إطار يواكب حياة العصر من حيث المرونة والتكيف، ويؤصل في الوقت ذاته جذور الإنسان المسلم في تربة الإسلام، وفي العمق الحضاري للعصر. ولهذا كانت فلسفته فلسفةَ حياةٍ مفتوحةٍ وفلسفةَ إنقاذ للعالم من الكارثة.

مصادر البحث

١. الغوري، عبد المالك الماجد، ديوان إقبال، طبع دار ابن كثير، دمشق، ٢٠٠٧، وقد اعتمدنا هذه الطبعة بشكل رئيس للإحالة، كونها تجمع الدواوين التسعة لإقبال.
٢. إقبال، محمد: ديوان جناح جبريل، نظم الشاعر زهير ظاظا، طبع دار إقبال ، دمشق، ١٩٩٨.
٣. ديوان أرمغان حجاز، نظم زهير ظاظا.
٤. ديوان ضرب الكليم، ترجمة عبد الوهاب عزام ونظمه، طبع المجلس الأعلى للثقافة بمصر، ٢٠٠٤.
٥. ديوان بيام مشرق، ترجمة عبد الوهاب عزام ونظمه، دار كلمات، القاهرة، ٢٠١٣.
٦. تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، طبع دار الهداية
٧. جمال الدين، محمد السعيد، تحقيق ديوان رسالة الخلود لإقبال، طبع دار الشروق الدولية، جاكرتا.
٨. الندوي، أبو الحسن علي الحسني، روائع إقبال، طبع دار الفكر، دمشق، ١٩٧٦.
٩. البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، ١٩٨٢.
١٠. عكاشة، رائد، الفلسفة في الفكر الإسلامي: قراءة منهجية ومعرفية، طبع المعهد العالمي للفكر الإسلامي – واشنطن، ٢٠١٢.
١١. الميلاد، زكي، محمد إقبال وتجديد الفكر الديني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإنساني، بيروت، ٢٠٠٧.
١٢. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، كتاب شرف أصحاب الحديث، دار إحياء السنة النبوية، أنقرة، ١٩٨٨.
١٣. ابن القيم، محمد بن أبي بكر، متن القصيدة النونية، ط مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
١٤. الأعظمي، محمد حسن، شكوى وجواب شكوى أشهر، دواوين إقبال المترجمة للعربية، طبع في الدار العلمية، بيروت، ١٩٧٢.
١٥. سرور، طه عبد الباقي، الحلاج: شهيد التصوف الإسلامي، طبع دار ناشرون، القاهرة.
١٦. ابن الكربوس التوزري، عبد الملك، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، دار الكتب العليمة، بيروت، ١٩٧١.

١٧.حنفي، حسن، إقبال فيلسوف الذاتية، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٩.
١٨.عبد الفتاح، علي، ديوان ابن الفارض، نشر وكالة الصحافة العربية، القاهرة، ٢٠١٣.
١٩.الششتري، نور الله، إحقاق الحق وإزهاق الباطل، دار النعمان، بغداد، ١٩٨٨.
٢٠.إبراهيم، سميح عبد الحميد، الأدب الأوردي الإسلامي، طبع جامعة محمد بن سعود، ٢٠٠٢.
٢١.رأفت الشيخ, محمد رفعت اسيا في التاريخ الحديث والمعاصر ط٢ عين الدراسات والبحوث الانسانية ٢٠٠١.
٢٢.محمود شاكر التاريخ الاسلامي المعاصر القارة الهندية .
٢٣.عبدالله العمراني, محمد اقبال الشاعر الحكيم ,مجلة الدراسات الاسلامية , المجلد التاسع ,العدد الرابع ايلول ١٩٧٤.
٢٤.فخري ، د. ماجد ، تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ترجمة : الدكتور كمال اليازجي ، الجامعة الامريكية ، بيروت ٨ .
٢٥.العراقي ، د. عاطف ، الشاعر محمد اقبال وقضية التجديد.
٢٦.د. ابراهيم ابومحمد, منظومة القيم ودورها في التجديد والنهضه(القاهرة, دار العواصم,الطبعة الاولى٢٠٠٩ .

المجلات

- مجلة الرسالة، العدد ٢٥٧، ١٩٣٨.
- مجلة الدوحة القطرية، عدد خاص عن إقبال، حزيران/ يونيو ٢٠١٤.

هوامش البحث

[١] . ينظر: عزام، عبد الوهاب، محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، ص ٩٥، طبع الدار العلمية، ١٩٧٢

[٢] . ينظر: عبدالله العمراني, محمد اقبال الشاعر الحكيم ,مجلة الدراسات الاسلامية , المجلد التاسع ,العدد الرابع ايلول ١٩٧٤ ص٤٦.

[٣] . ينظر: البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص ٣٨٢

[٤] . روائع اقبال لابي الحسن علي الحسيني الندوي ص٣٠.

[٥] . كتب إقبال كتابه هذا بالانكليزية (1930) تحت عنوان (The Reconstruction of Religious Thought in Islam)، وصدرت ترجمته العربية الأولى على يد عباس محمود، ومراجعة الشيخ عبد العزيز المراغي، وطبعت عبر لجنة الأبحاث والنشر في القاهرة (١٩٦٨)، ثم طبعت في دار الهداية (2000)، كما صدرت ترجمة أخرى للكتاب على يد محمد يوسف عدس، وطبعت في مكتبة الإسكندرية (٢٠١٠)، كما طبعتها دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني فيما بعد.

[٦] . فخري ، د. ماجد ، تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ترجمة : الدكتور كمال اليازجي ، الجامعة الامريكية ، بيروت ٨ ، د.ت ، ص٤

[٧] . عزام، عبد الوهاب، محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، ص ٢٦، طبع الدار العلمية، ١٩٧٢.

[٨] . المصدر السابق ص ٢٤١.

[٩] . الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج٢، ص ٤٦٠.

[١٠] . جبلالي، بو بكر، «نظرية الحضارة بين مالك بن نبي ومحمد إقبال»، نُشرت في منتدى ابن خلدون ٢٠١١/٤/١٩ /http://miraatalwasat-2007.jeun.fr

[١١] . «سيرة إقبال » للفاروقي ص ٤٢٦-٤٢٨.

[١٢] . ينظر «تاريخ الدعوة الإسلامية بالهند» لمسعود عالم الندوي ص ٢١٩-٢٢٠.

[١٣] . اقبال فيلسوف التجديد الاسلامي ص٧.

[١٤] . عدد خاص خصّصته مجلة الدوحة القطرية للحديث عن إقبال، حزيران/ يونيو ٢٠١٤، والمقال من تحرير هند عبد الحليم.

[١٥] . الندوي، أبو الحسن علي الحسني، روائع إقبال، دار الفكر، دمشق، ص ٥٥.

[١٦] . نظم عبد الوهاب عزام، من ديوان إقبال: والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج ٢، ص ٣٨٥.

[١٧] المصدر نفسه، ص ٣٨٣.

[١٨] . اشتهرت عن إقبال ولم أجدها في دواوينه، وقد نقلتها عن كتاب مملكة البيان لعائض القرني، دار ابن حزم، ص ١١٤.

[19] . إقبال، محمد، ديوان والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، نظم الصاوي شعلان، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج ٢، ص ٣٨٦.

[20] . المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[21] . رأفت الشيخ, محمد رفعت اسيا في التاريخ الحديث والمعاصر ط٢ عين الدراسات والبحوث الانسانية ٢٠٠١ص١٥٢.

[22] . محمود شاكر التاريخ الاسلامي المعاصر القارة الهندية ص٤٨.

[23] . محمد اقبال ص١٦.

[24] . المصدر نفسه، ص ٣٨٨.

[25] . إقبال، محمد، ديوان والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، نظم الصاوي شعلان، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج٢، ص ٣٨٤.

[26] . إقبال، محمد، ديوان والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، نظم الصاوي شعلان، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج٢، ص ٣٨٨.

[27] تحقيق محمد السعيد جمال الدين لكتاب إقبال جاويد نامه، طبع مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٥.

[28] . البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص ٤٢٤-٤٢٦.

[29] . إقبال، محمد، ديوان جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج٢، ص ٤٦١.

[30] . يكثر إقبال من الإشارة إلى محمود وإياز، ويقصد بمحمود الغزنوي فاتح الهند (٩٧٠-١٠٣٠م)، وهو رمز لقوة المسلمين ونجاحاتهم في الهند؛ أمّا إياز، فهو غلام أسود كان الغزنوي يقربه ويعجب بذكائه وفطنته، ومراد إقبال هو الإشارة إلى الثقة والإرادة التي منحها الإسلام لهذا الغلام الأسود حتى صار جليس الملوك وصاحب شوراهم.

[31] . بابك وأكبر وأورنك زيب ثلاثة من أباطرة المغول الذين حكموا الهند، وكانوا رمزاً لقوة المسلمين وبأسهم وعدالتهم: بابر (١٥٢٦-١٥٣٠) وأكبر (١٥٥٦-١٦٠٥) وأورنك زيب (١٦٥٨-١٧٠٧).

[32] الأبيات من ديوان ضرب الكليم، نظم عبد الوهاب عزام، وهي في ديوان إقبال، طبع ابن كثير، ج٢، ص ٣٢٢.

[33] . اقبال محمد ، قصائد مختارة ودراسات ، اعداد وتقديم : د . خالد عباس اسدي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، د.ت ، ص٣٣

[34] . إقبال ، د. محمد ، تجديد الفكر الديني في الإسلام ، ص٢١٧

[35] . العراقي ، د. عاطف ، الشاعر محمد اقبال وقضية التجديد ، ص٣٨

[36] . إقبال ، د. محمد ، تجديد الفكر الديني في الإسلام ، مصدر سابق ، ص٢١٥-٢١٦

[37] . ديوان جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وهو في ديوان إقبال باعتناء الغوري، عبد الماجد، ج٢، ص ٤٣٧.

[38] . المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[39] . إبراهيم، سميح عبد الحميد، الأدب الأوردي الإسلامي، ص ١٥.

[40] . الأبيات من ديوان إقبال، الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج٢، ص ٥٠٥.

[41] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[42] . النيفر، احميدة، محمد إقبال والإنسية القرآنية، مقال نشره النيفر في مركز مؤمنون بلا حدود، تموز/ يوليو ٢٠١٥.

[43] . الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج١، ص ٧٧.

[44] . نسج نيتشه فلسفته على لسان الحكيم زرداشت في موعظة الجبل، وعنوان كتابه (هكذا تكلم زرادشت)، ويسمى تخفيفاً زارا.

[45] . عزام، عبد الوهاب، مجلة الرسالة، العدد ٢٥٧، تاريخ ١٩٣٨/٦/٦.

[46] . عكاشة، رائد، ومع الجندي وخرمه، الفلسفة في الفكر الإسلامي، قراءة منهجية ومعرفية، ص ٣٨٧، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٢.

[47] . من ديوان جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وتجده في ديوان إقبال، طبع ابن كثير، ج١، ص ٤٠٣.

[48] . ديوان جناح جبريل، ظهير ظاظا، وتجده في الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج٢، ص ٤٢٩.

[49] . ديوان جناح جبريل، ظهير ظاظا، وتجده في الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج٢، ص ٤٢٩.

[50] . الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج٢، ص ٤٣٠.

[51] . ديوان جناح جبريل، ظهير ظاظا، وتجده في الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج٢، ص ٤١١.

[٥٢] . نظم زهير ظاظا، والأبيات من ديوان إقبال أرمغان حجاز، وهي في ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج٢، ص ٤٥٥.

[٥٣] . المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[٥٤] . نظم زهير ظاظا، ديوان إقبال جناح جبريل، ديوان إقبال، ج ١، ص ٤٣٥.

[٥٥] . جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وتجدها في ديوان إقبال الأعمال الكاملة، ج ١، ص ٥٠٥.

[٥٦] . الأبيات من ديوان إقبال الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج٢، ص ٥٠٥.

[٥٧] . الأبيات من ديوان إقبال الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج٢، ص ٤٢٢.

[٥٨] . ينظر: د. ابراهيم ابومحمد, منظومة القيم ودورها في التجديد والنهضه(القاهرة, دار العواصم,الطبعة الاولى٢٠٠٩ ص١٧.

[٥٩] . دمحمد حبش, الخلافة الاسلامية في فكر محمد اقبال, مقالة مرصد الشرق الاوسط.

[٦٠] . اقبال فيلسوف التجديد الاسلامي ص٧٥.

61 . محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار الهداية، ص ٢٤٢.